الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية



فى غزوة جديدة للفكر الإنسانى

بقلم

أنور الجندى

لجنة التعريف بالإسلام

اهداءات ٢٠٠١

ا.د محمود دياب

جراح بالمستشفى الملكي المصري

التعريف بالاسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الاسلامية
بالقاهرة

الإسلام
فى غزوة جديدة للفكر الإنسانى

بقلم

أنور الجندى



يشرف على اصدارها
محمد توفيق عويضة

الكتاب التاسع عشر
١٣٨٤ - ١٩٦٤



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الاهــداء

الى روح أبى ..

« أ. ج »



مطالع البحث

ما تزال حقيقة الاسلام تتكشف ، وتزداد قوة ووضوحا ، بعد أن مرت بمرحلة مظلمة من الغبن والعقوق ، واجهها به أولئك الذين كان «الاسلام» بفكره وحضارته وثقافته أساس نهضتهم وحضارتهم الحديثة .

ولقد واجه الاسلام منذ القرن الخامس عشر حملة منظمة كانت تستهدف أمرين :

١ ـ القضاء عليه فى نظر الغربيين والانسانية جميعا وتشويه معالمه الحقيقية حتى يسقط نهائيا .

٢ ـ اثارة الشبهات والشكوك فيه بالنسبة لأهله حتى ينتهى فيما بينهم كمقوم أساسى للحياة والفكر والحضارة .

وقد نجحت هذه الحملات إلى حد كبير فى تحقيق الهدفين .

غير أن الاسلام بقوته الذاتية استطاع أن ينفذ إلى الفكر الانسانى من خلال الكتابات التى حملت عليه ، وشوهته فأمكن أن يلقى ضوءا على النفس الانسانية خارج العالم الاسلامى ، وما لبث هذا الضوء أن اتسع حتى أصبح تيارا قويا ، جمع اليه عشرات من أقلام الكتاب والفلاسفة والمؤرخين والباحثين ، هؤلاء الذين لا يشك أحد مطلقا فى أن الاسلام استعملهم ،

أو حملهم على الايمان به وتقديره ، إلا عن طريق وجدانهم وفكرهم الذى استطاع أن يصل إلى الحقيقة ويقتنع بها .

ويمثل هذا التيار فى الفكر الانسانى غزوة جديدة للاسلام لا شك فى قوتها وأصالتها والنتائج البعيدة المدى المترتبة عليها .

وجملة القول فى آراء هؤلاء الكتاب أن الاسلام دين عالمى إنسانى لاشك فيه ، وأن الانسانية فى أشد الحاجة إليه الآن لحل مشاكلها .

ولا يخلى بروز هذا التيار من المفكرين العالميين مسئولية الفكر الغربى ، فى حملته الظالمة على الاسلام ، هذه الحملة التى لا تزال مستمرة منذ بدأت فى القرن الخامس عشر ، والتى تدفعها عوامل النفوذ الأجنبى والتغريب والتسلط على العالم الاسلامى وسحق مقوماته الأساسية وتحويله عن قيمه وشخصيته ومفاهيمه وفرض قيم عليه ليست من طبيعته ولا من بيئته .

وعندى أن هذا العمل ينفع فى مجال خدمة الاسلام العالمى كما ينفع فى خدمة المسلمين أنفسهم ، ذلك لأنه إذا كان العالم الإسلامى ما يزال خاضعا للرأى الأجنبى ، مقدرا له ، حتى ولو كان من أعدائه ، فما أحراه أن يقدر هذا الرأى الأجنبى المنصف الذى يدعوه إلى أن يتمسك بالاسلام ، والذى يدعو الانسانية كلها أن تتخذه سبيلا لحل أزمتها الكبرى .

وفى يقينى أن كثيرا من كتابنا الذين أنصفوا الاسلام ، لم يتجهوا إلى هذا العمل إلا بعد أن سبقهم إلى ذلك المنصفون من الغرب أمثال : جوستاف لوبون وتوماس كارليل وأميل درمنجم .

وبعد فهذا عمل جديد فى ميدان جديد لخدمة الاسلام وإزالة الشبهات عنه أرجو أن ينفع الله به .... والسلام .

الهرم – رجب ١٣٧٣

أنور الجندى



موضوعات البحث



(١)

التحديات في وجه الإسلام



واجه الاسلام التحديات الخارجية منذ اليوم الأول لوجوده، واجهها فى بيئة مكة ثم فى بيئة المدينة . ممثلة فى مقاومة الوثنية واليهودية له . . ثم اتسع نطاق هذا التحدى بعد أن فتح الاسلام بلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا حيث واجه تحدى الدولة الرومانية المسيحية .

ثم امتدت هذه التحديات فى صورة الدعوات الهدامة المتعددة التى واجهت الاسلام خلال دوله : الأموية والعباسية وما بعدهما . دعوة عبد الله بن سبأ ومحاولات البرامكة والفرس ، والراوندية والمقنعة والخزمية . والبابكية والاقشين وابن ديصان والمزدكية والمانوية والقرامطة وحسن الصباح ثم التتار .

وكلها دعوات مؤيدة بقوة الفكر والسلاح انبعثت من قلب العالم الاسلامى نفسه ولا يبعد أن تكون مؤيدة بقوى خارجية .

غير أن التحديات التى واجهت الاسلام من خارج نطاقه ومن خلف حدود العالم الاسلامى قد بدأت بالحروب الصليبية ، حينما أحست أوربا خطر الاسلام الذى نما واتسع سلطانه ، ومن ثم جاءت هذه الحركة نتيجة أساسية لهذا المعنى

وإن اتخذت من ظهور السلاجقة - بمظهر القوة واتساع السلطان السياسى واستيلائهم على بيت المقدس واكتساحهم أملاك الامبراطور الأسيوية حتى بحر مرمرة - سبيلا مباشرا لإعلان الحرب .

وكان بطرس الناسك هو أول من دعا إلى هذه الحروب مطالبا بحماية البقاع المقدسة ، فاستطاع أن يسوق جموعا ضخمة فى صورة حملات كانت صورة واضحة من الفوضى والاضطراب ولم تكن فى حقيقتها جهادا دينيا منظما وإن أسبغت البابوية نفوذها على هذه الحملات .

بدأت هذه الحملات ٤٩١ هـ - ١٠٩٨ م حيث استولى (جود فروا دى بويون) وزملاؤه قواد الحملة الصليبية الأولى على بيت المقدس وكثير من مدن الشام .. وثغوره وأنشأوا المملكة اللاتينية ، ثم توالت الحملات على الشام ومصر حتى عام ١٢٧٠م وبذلك استمرت حوالى ١٧٠ عاما . وقد استطاعت هذه الحملات أن تسيطر على عكا وطرطوس وإنطاكية وحلب ، وتمكنت من إقامة أربع إمارات لاتينية : هى بيت المقدس وطرابلس وإنطاكية والرها .

ثم بدأت حملات رد الفعل ومواجهة التحدى من الجانب الاسلامى على الفرنجة ، بدأها عماد الدين زنكى ونور الدين زنكى سلطانا الموصول .. وتبعهما فى حمل اللواء «صلاح الدين الأيوبى» الذى حقق انتصارات ضخمة حيث احتل طبرية ١١٨٧م وانتصر فى معركة حطين وأسر لوسيتيان ملك أورشليم ورفيقه الملك راجينا ، ثم خان الأخير عهد صلاح الدين الذى أطلقهما ، وكان أن قتله صلاح الدين بيده .

وأسلمت أورشليم قيادها إلى صلاح الدين ١١٨٨م ودانت له المدن الافرنجية فى سورية وفلسطين وسقطت فى يده أغلب القلاع ، ولم يبق فى حوزة الفرنجة إلا إنطاكية وطرابلس وصور وبعض المدن الصغيرة .

على إثر ذلك قدمت الحملة الصليبية الثالثة وعلى رأسها امبراطور المانيا وملكا فرنسا وانجلترا : فردريك بربروسا وفيليب أوغسطس ورتشارد قلب الأسد وهاجمت القوه عكا ، ووقف صلاح الدين يدافع عنها ، ودام الحصار عامين ... كاملين ، واضطرت عكا إلى التسليم أخيرا وأسر الفرنجة زهاء الفين وسبعمائة من المسلمين ثم أطلق سراحهم بعد مفاوضات انتهت بأن يكون الساحل للاتين والداخل للمسلمين ، ومات صلاح الدين بعد ذلك بشهور قليلة .

ثم أخذت الحملات الصليبية تتجه إلى مصر مرتين ، الأولى بقيادة جان دى برين ملك بيت المقدس ، وكان فى مائتى ألف رجل ، هاجموا مدينة دمياط. ثم نفذوا منها زاحفين إلى القاهرة ، وقد تمكنت قوات الملك الكامل من قطع جسور الترع التى تحيط بقوات الصليبيين فانهزموا . ثم هاجمت مصر حملة أخرى على رأسها لويس التاسع حيث نزلت مدينة دمياط. وزحفت منها إلى قلب الدلتا ، ولكنها لم تلبث - وقد انقطعت عنها الإمدادات وتفشى فيها الوباء - أن انهزمت فأسر المصريون منهم ما بقى بعد هلاك أغلب الجيش بين جريح وذبيح .

وخلف « الظاهر بيبرس » - صلاح الدين فى توجيه الضربات إلى الصليبيين فاحتل الكرك واقتحم قيسارية وإنطاكية ، وانتزع حصن الأكراد من

أيدى الفرسان . ثم واصل «قلاوون» خطة بيبرس فاستولى على حصن المرقب بجوار طرابلس ، ثم هاجم الملك الأشرف عكا ، وقد فتحها المسلمون بعد حصار دام شهرا كاملا . ثم استولى على صور وصيدا . وبيروت وطرطوس ..

وكان أن ساق لويس التاسع عشر حملة صليبية أخيرة على تونس ، وقد فشلت هذه الحملة وقتل القديس لويس .

* * *

وبعد فليس من هدفنا أن نرسم صورة كاملة لهذا التحدى الكبير الذى واجه الاسلام من خارج العالم الاسلامى ، ولكنا أردنا أن نرسم ملامح الصورة.. التى نعتقد أنها «نقطة البدء» فى حملة التحديات الضخمة التى وجهها الغرب إلى الاسلام منذ ذلك اليوم والتى ما زالت مستمرة إلى اليوم ، وكيف واجه الاسلام هذه الحملة وكشف عن أخطائها ومغالطاتها وزيوفها ، واستطاع بقوته الذاتية أن يدفع الكثيرين من مفكرى الغرب إلى تأييده على أساس اقتناع كامل بسلامته وصلاحيته للبقاء والحياة والتطور .

وإذا كانت الحملات الصليبية التى بدأت ٤٩١هـ ١٠٩٨م قد توقفت ٦٤٤هـ - ١٢٥١م عسكريا فإنها فى الواقع لم تنته ، أو أنها بعد أن استمرت مائة وثلاثة وخمسين عاما ، لم تقف بل تجددت فى الأندلس حتى جاء اللورد اللنبى بعد ذلك بستمائة وسبعة وستين عاما ، ووقف فى بيت المقدس عام ١٩١٨م ليقول كلمته التى لاتنسى :

«اليوم انتهت الحروب الصليبية» .

ومعنى هذا أن الغرب حين توقف عن الحروب الصليبية فى ميدانها العسكرى لم يكن قد توقف فعلا ، وانما كان قد بدأ مرحلة أخرى من الحرب فى مجالات الفكر والسياسة وغيرها استطاع بها ان يحقق عام ١٩١٨م ما ظنه النصر الذى تخلف عنه عام ١٢٥١م .

وفى خلال هذه الفترة الطويلة الممتدة مضى الى غايته العمل الكبير - الذى أعده الغرب لمواجهة الاسلام ومحاولة القضاء عليه ، وفى خلاله برزت هذه التحديات الضخمة فى صورة التبشير والاستشراق والتأليف والصحافة والمؤسسات المختلفة والارساليات العديدة التى اندفعت إلى هذه المنطقة فى ظل النفوذ الأجنبى المسيطر على الدولة العثمانية وتحت سمع الحكومات المختلفة وتأييد القناصل لتبدأ عملية الغزو الكبرى التى واجهها الاسلام بقوة وأدال منها .

* * *

وفى خلال هذه المرحلة أيضا لم يتوقف الغزو العسكرى ، فاذا كانت الحروب الصليبية قد انتهت ١٢٥١ فان حربا أخرى شنها الغرب على الاسلام فى الأندلس ، واستمرت أكثر من أربعة قرون . وقد تمثلت هذه الحرب فى تضام الدويلات المسيحية فى شبه الجزيرة وأهمها قشتالة ونفارة وأربونة والبرتغال حتى استطاعت أن تهاجم الدولة الاسلامية وتستولى على قرطبة عام ٦٣٣هـ - ١٢٣٦م وقد وقفت أوربا كلها وراء هذه الحركة تمدها بالمال والسلاح ، فسقطت بلنسيه عام ٦٣٦هـ - ١٢٣٩م وسقطت مرسية عام ٦٤١هـ - ١٢٤٤م وأشبيلية عام ٦٤٤هـ - ١٢٤٧م .

ذلك أن الغرب المسيحى بعد هزيمة الحروب الصليبية فى المشرق كان قد صمم على اجلاء المسلمين والعرب نهائيا عن أوربا ، وكان قيام اتحاد مملكة قشتالة وارجون بزواج ملكيهما ازبيلا وفرديناند الخامس هو «نهاية الشوط» فى القضاء على الدولة الاسلامية فى الأندلس .. ولم يأت عام ٨٩٢هـ – حتى سقطت فى أيديهما غرناطة ، فقد زحفا فى ٥٠ الفا لحصارها وقاتل المسلمون دونها شبرا فشبرا .

ثم نصب الصليب الفضى الكبير فوق برج الحمراء ، وسلم أبو عبد الله آخر خلفاء المسلمين فى الأندلس مفاتيح غرناطة الى فرديناند ثم اجتاز بر العدوة .

ومنذ ذلك اليوم بدأت معركة إبادة لم يعرف التاريخ لها مثيلا فى الهول والشدة ، والعنف والمرارة ، فقد أمّن فرديناند المسلمين أول الأمر على أموالهم وأزواجهم وشريعتهم وحرية عباداتهم وشعائر دينهم ، فلا يرغم مسلم على التنصر ، ولا يولى عليهم يهودى أو نصرانى ، وأن تعطى الفرصة لمن يريد أن يجوز الى افريقيا فى سفن تقدم اليهم .

غير أنه لم يلبث أن غدر بهم غدرا شنيعا ، اذ أجبرهم على التنصر ، وكان من أبرز الأحداث البربرية أن جمعوا المصاحف وذخائر العلم والفكر الاسلامى فى ساحة المدينة فاضرموا فيها النار ، وكان فى مكتبة قرطبة وحدها مليون كتاب .

ثم رتبوا أنظمة كهنوتية لمحاربة المسلمين أسموها بأنظمة فرسان الهيكل مما اضطر الألوف المؤلفة الى أن ترتد خوفا من القتل والتشريد ، كما هاجرت

جموع أخرى الى ثغور افريقيا ، أما المسلمون الذين بقوا فقد استحالوا الى طائفة من «الموريسكين» أى العرب المتنصرين . ولكن هذه الفئة أيضا لم تلبث أن أبيدت فى عهد فيليب الثانى .

وفى عام ١٥٥١ صدرت إرادة ملكية تقضى على من فى قشتالة وليون من المسلمين اما بالرجوع عن دينهم أو الجلاء عن البلاد ثم أمر المسلمون بالتخلى عن اللغة والعبادة . وفى عهد فيليب الثالث ١٦٠٩ أمر المسلمون بالجلاء فهاجر منهم فريق وامتنعت طائفة بجبال البشرات ذات المعاقل الثلجية ثم انفجرت الثورة واستمرت مشتعلة سنوات ، بدأت موجة التعذيب والقتل والخيانة ودافع المسلمون عن أنفسهم دفاعا مجيدا ، وانتقموا من خصومهم انتقاما بالغا ، ومضى الدون جون ٩٧٨هـ - ١٥٧٠م يحرق القرى بمن فيها ؛ ويوقد النار على المختبئين بالكهوف والأغوار ، وفى ١٠١٩هـ - ١٦١٠م كان قد بلغ من قتل من المسلمين وحرق ونفى ثلاثة ملايين .

وقتل الراهب ميلدا ١٦١٠م فى حركة اجلاء المسلمين عن أسبانيا مائة الف مهاجر فى قافلة واحدة مكونة من ١٤٠ الف مهاجر ، وبنى الفرنجة الكنيسة الجامعة فى قلب مسجد قرطبة ووضعوا فى المحراب صورة القديس فرديناند - فى وسط دائرة من الذهب - وهو على ظهر فرسه وامامه ملك العرب يقدم مفاتيح المدينة ، .. وهكذا خلت الاندلس من المسلمين من البيرنيه الى صخرة طارق ومن المحيط الى شواطئ برشلونه .

* * *

وبينما كانت هذه المعركة التى تعد بحق المرحلة الثانية للحروب الصليبية مستمرة ، كانت قد بدأت المرحلة الثالثة : وهى اخراج المسلمين من أوربا الشرقية ، هذه الدعوة التى علت صيحتها فى أواخر القرن السادس عشر حين دعا البابا بيوس الخامس الى حلف يضم ملك أسبانيا وجمهورية البندقية ، ثم أعلنت الحرب المقدسة لاسترداد جميع الأقطار المسيحية والأجزاء الأوربية من دولة الخلافة العثمانية وبذلك أخرج المسلمون من أوربا نهائيا .

* * *

من خلال هذه المعارك الثلاث تبدأ خيوط التحديات الفكرية التى حمل لواءها الغزو الفكرى الغربى لمواجهة الاسلام ، فقد استطاع الغربيون عن طريق الحملات الصليبية ومعارك الأندلس وتركيا ومن خلال هذه المنافذ إحراز قدر كبير من آثار الفكر الاسلامى ، حيث بدأت على الاثر حركة ترجمة ضخمة من العربية الى اللغات الأوربية لكل ما ابتدعه المسلمون فى ميادين العلم والأدب ، والتشريع ومن هذه الحصيلة الضخمة بدأ عهد الرينسانس « النهضة » لا شك ولا ريب بشهادة المؤرخين المنصفين .

وقصة الرواد الغربيين لأسبانيا وتلقيهم العلم فى جامعاتها أمر معترف به ، فمن مدرسة طليطله فى القرن الحادى عشر أخذ العربية المستشرق سكوت رئيس مكتبة فردريك الثانى ومن مدرسة أشبيلية ١٢٠٤ تخرج كبار العلماء الغربيين . وبقيت اللغة العربية لغة الثقافة والمعاملات والعقود حتى عام ١٥٨٠ وظلت بعض قرى بلنسيه تتكلم العربية حتى القرن التاسع عشر[1] ومن آثار

(١) نجيب العقيقى : كتابه المستشرقون ص ٢٨ ـ بيروت ١٩٣٧ ..

المسلمين فى فرنسا مدرسة الطب فى مونباليه ١٢٢٠ ، ومن هذه المدينة نشرت ترجمة القرآن باللاتينية فى المجلة الآسيوية ، وانتشرت فلسفة ابن رشد وابن سينا والرازى الى جامعات لومباردى وسويسرا ولوفان وقد بدأت فعلا نهضة ترجمة مشابهة للنهضة التى قام بها المسلمون أيام المأمون ، حيث بدأت فى طليطلة أكبر مراكز الترجمة والنقل منذ أوائل القرن الحادى عشر (فقد استرجعها الأسبان ٤٧٨هـ-١٠٨٥م) .

ترجم الفكر الاسلامى والثقافة الاسلامية الى اللاتينية ، فقد أصبح بلاط الفونس السادس مفتاح باب الثقافة الاسلامية لأوربا وبه ظهر روبرت انجليز (Robert Anglieus) أول مترجم للقرآن ثم ظهرت أول مدرسة للترجمة فى طليطلة ٥٣٠ هـ ١١٣٥ التى أنشأها الأسقف ريموند الأول واستمرت حتى عام ١٤٨٢ وجذبت اليها الأساتذة من انحاء أوربا أمثال ميخائيل سكوت وروبرت أوف جستر ، ثم ظهر فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الفونس الحكيم أكبر رسل الثقافة الاسلامية وتنافست أشبيلية ومرسيه فى ترجمة العلوم والطب وأنشأ جماعة المبشرين أول مدرسة للدراسات الشرقية فى طليطلة عام ١٢٥٠ فدرست الفلسفة والفقه الاسلامى ..[١] ولم يقف الأمر عند ترجمة الآثار اليونانية المعربة ، بل ترجمت الآثار العربية ذاتها فان (روجربيكون) يقول ان الفلسفة أخذت عن العرب وأن كتابات أرسطو لم تفهم ولم تلق رواجا فى الغرب حتى أوضحتها كتابات ابن رشد وابن سينا وترجمت تعليقات

(١) تاريخ الحضارة العربية : ناجى معروف وعبد العزيز الدروى : بغداد١٩٤٨.

ابن رشد مع أرسطو ولاقت رواجا حتى صارت تهدد الكنيسة ، وترجمت كتب الكندى وابن عربى والغزالى .

وتأثر الغربيون بآثار هؤلاء الكتاب فمنهم من تشيع لابن رشد أو للغزالى وقد تأثر توما س أكويناس الكاثوليكى بآراء الغزالى ، أما ابن رشد فقد أقام معارك وصراعا لا حد له امتد حتى القرن السادس عشر وأثرت فلسفته فى نشوء العلم التجريبى الحديث .

ويعد الراهب جربرت (سلفتسر الثانى) الفرنسى أول من قصد الأندلس طلبا للعلم فى مدارس أشبيلية وقرطبة وقد كان اهتمامه بالتشريع الاسلامى والفقه وقد انتخب حبرا أعظم عام ٩٩٩ وكان له دور كبير فى تطعيم الفقه الرومانى القديم بالشريعة الاسلامية .

والكلام عن أثر الفكر الاسلامى فى الثقافة الأوربية طويل[١] ، ومتشعب ، وهو لا يقف عند ميدان معين من ميادينه فى مجال الفلسفة والدين والفقه ، وفى مجال الأدب ، وفى مجال الموسيقى وفى مجال الطب والحساب والكيمياء والفلك وعلوم البحار له آثار واضحة تشهد بها كل المنصفين من الباحثين .

وجملة القول أن هناك ثلاث جبهات اجتاز الفكر الاسلامى منها إلى اوربا بمختلف عناصره الأدبية والعلمية والفلسفية : منطقة الشام خلال الحرب الصليبية وما بعدها (١٠٩٨ ـ ١٣٠٠) وصقلية فى عهد الأغالبة (٨٣١-٩٠١) وأسبانيا فى عهد الاسلام (٧١١-١٤٩٢) وقد أقام الاسلام فى أسبانيا ٨٧١ عاما .

(١) اقرأ كتابنا شخصيتنا العربية أو كتاب صفحات من امجادنا أو كتاب الفكر العربى الاسلامى .

ولذا كان هذا الفكر الاسلامى ـ الذى هو البذرة الأولى للثقافة الغربية والحضارة الحديثة ضحية اتهام خطير فان الفكر الغربى لم يلبث أن اتخذ منه سلاحا لمقاومة الاسلام نفسه ومحاولة القضاء عليه فى معركة من التحدى تعددت ميادينها واتسع مداها على النحو الذى تكشف عنه الفصول التالية .



٢

بدأت معركة التحدى منذ اليوم الأول الذى استطاع فيه الغرب أن يسيطر على عصارة الفكر الاسلامى ويجعلها ركيزته الأولى لبناء النهضة وقد شملت هذه المعركة العالم الاسلامى كله كمنطقة خصبة واسعة تمر بفترةمن فترات الضعف والركود ، ويجد فيها الغرب خاماته وأسواقه ، ويتطلع اليها كجزء من مخططه فى الاستعمار والغزو لكل ما سوى أوربا .

وقد حملت النهضة الغربية فى تضاعيفها عوامل التحدى للاسلام كرد فعل لقوته الذاتيه التى استطاعت أن تديل من الغرب فى أكثر من معركة وأن تهزمه فى عديد من المواقع .

واذا كانت معركة الغزو الغربى للعالم الاسلامى قد حملت عديدا من الخطط الفكرية التى أريد بها تمزيق وحدته أو اخضاعه للسيطرة الاستعمارية تمثلت فى دعوات التجزئة والتغريب والقوميات الضيقة والفرعونية والفينيقية والبربرية ، فان الخطة الكبرى فيما يبدو كانت فى مواجهة الإسلام بالذات – كعامل ضخم يحول بين الاستعمار والنفوذ الاجنبى وبين تحقيق أهدافه فى السيطرة الكاملة على معتنقيه .

ذلك أن الاسلام فى صميم تعاليمه يحمل قوة للمقاومة والدفاع عن النفس لا حد لها ، وقد كان تاريخه كله معركة متصلة لدفع الغاصبين والمعتدين .

فضلا عن أن الاسلام لم يكن فى صميم تعاليمه دينا فحسب ولكنه كان دينا ومجتمعا وحضارة ، متصلة بشئون الحياة والحكم والفكر ، وهوبطبيعته قادر على مواجهة تطور الأزمان واختلاف البيئات والأقطار ، وله من القدرة الذاتية ما يمكنه من التبلور والتناسق بحيث لا يتوقف ولا يجمد ولا يتعارض مع طبائع الامم فى حركتها الدافعة الممتدة عبر العصور بل انه فى صميم تعاليمه قد حمى الحضارة وتألفها واستمد من حضارات الفرس والرومان ، واليونان والهنود كل ما فيها من عناصر القوة وأضافها إلى نفسه ووسع بها كيانه وظل مع ذلك محتفظا بملامحه الأصلية وشخصيته الواضحة .

كل هذا كان من شأنه أن يدفع النفوذ الغربى إلى مقاومة الاسلام الذى يقف حجر عثرة ضد توسعه وتسلطه ، واستمرار هذا التوسع والتسلط إلى الأمد الطويل الذى قدره الاستعمار للسيطرة على العالم الاسلامى . . . وخاماته وقواعده وموانيه وأرضه .

فاذا أضيف إلى عامل الاسلام «كقوة مقاومة» ، عامل التعصب الذى يحمله الغرب منذ هزيمته فى الحروب الصليبية وما تبع ذلك من توسع جديد للقوى الاسلامية امتد على طول جبهة واسعة فى آسيا الصغرى ومنها امتد حتى بلغ نهر اللوار ، كان موقف النفوذ الغربى عنيفا فى حملته على الاسلام ، فلقد نشأ جيل فى الغرب يحمل عناصر الحقد على الاسلام والعالم الاسلامى ، وارتبط هذا الجيل بدراسات فى المدارس والمعاهد ودراسات تخصص تحمل «التعصب» صورة الفكر وترى فى الاسلام رأيا مظلما بعيدا عن الحق ، وتؤمن بأن كل ما سوى أوربا عبيد وبرابرة ، وأن الجنس الأبيض

هو الذى يحمل لواء الحضارة وله وحده السيطرة والحكم ، وأن كل الشعوب غير البيضاء لاحق لها فى الحياة

وكان للكنيسة دورها الضخم فى تأريث هذه الحملة الضارية على الاسلام ، مما كان له أبعد الأثر فى انعدام النظرة الصحيحة للاسلام وأهله ، فلقد بدأت قوى التبشير المؤيدة بالعلم والمال تعمل ، وتتخذ مراكزها فى قلب العالم الاسلامى كمقدمة للغزو العسكرى والسياسى ، وهى تحمل معها فكرا مضطربا بالغ التعصب فى انكار فضل المسلمين على الحضارة ، والغاء دورهم الغاء من المدنية وتغليف حقائق التاريخ بطابع الحقد ، فالقرآن الذى ترجمه القساوسة قصد به التحريف وأريد به أن يكون سلاحا لحرب الاسلام ، وسيرة النبى زيفت واتخذت الروايات الضعيفة أسسا لتصوير حياة محمد فى صورة بعيدة كل البعد عن الحقيقة ، واتهمت أصول الاسلام وقيمه بالضعف والاضطراب ، وأضيفت الشكوك والاتهامات الى كل تاريخه الناصع ، وهوجمت شريعته ووصفت بالاضطراب والتخبط .

وقام على هذا العمل علماء لهم أسماء لا معة ، استخدموا لهذه الحملة الضخمة على رأسهم فولتير وريتان ولامنس وزويمر .

وقد حملت بعثات التبشير التى انبثت منذ عام ١٨٣٠ فى أنحاء العالم الاسلامى هذه الأفكار لإذاعتها فى المسلمين أنفسهم ، لتشكيكهم فى دينهم ونبيهم وتاريخهم ولغتهم .

* * *

أما العلماء الذين حملوا أمانة الدراسات الاسلامية فقد كان أغلبهم متصلا بالدوائر السياسية الغربية ووزارات المستعمرات التى كانت تتخذ من حملة التعصب والتغريب وسيلتها الى هدم القيم الأساسية للاسلام فى العالم الاسلامى كوسيلة من وسائل دعم نفوذ الاستعمار وتأكيد مركزه؛ وهؤلاء المستشرقون لم يكونوا فى الواقع يتخذون روح العلم فى أبحاثهم فينظرون الى القضايا نظرة مجردة خالصة من كل هوى نفسى، للوصول الى الحقيقة أينما تكون الحقيقة ولو فعلوا لكانوا أقرب الى الانصاف، فان سلامة تعاليم الاسلام ومقاصده وقيمه كفيلة بأن تقنع الباحث المنزه عن الهوى، ولكنهم كانوا فى الأغلب يضعون فروضا معينة، أملاها الغرض الذى يهدفون اليه، أو التعصب ثم يحاولون التماس الدليل الى هذا الغرض وهم فى سبيل الحصول على هذا الدليل يخالفون أبسط قواعد البحث العلمى النزيه، فيأخذون جزئيات من الآيات والأحاديث، ويحاولون أن يفسروا ما يصلون اليه فى تعسف على حد تعبير الدكتور حسين الهراوى[1]، فاذا وجدوا فى القرآن ما يهدم نظريتهم تجاهلوه، والتمسوا الآيات التى تتناسب والمعنى المراد، ولا مانع من بترها اذا اقتضى الحال، أو تحريف معناها حسب الرغبة فيخرج القارئ من كلامهم وهو يتهم الاسلام بالتلفيق.

ونحن هنا لا ننكر فضل الاستشراق والمستشرقين المنصفين، وأثرهم البعيد المدى فى بعث التراث العربى ولكنا نقصد منهم من عملوا فى خدمة أغراض الاستعمار، ولقد روى نجيب العقيقى فى كتابه (المستشرقون) أنباء

---

(١) كتاب المستشرقون والاسلام: للدكتور الهراوى

المستشرقين الذين كانوا يتطلعون الى تشجيع الملوك والامراء ، وكيف كان الملوك يريدون منهم أمرين[1] : (الأول) الوقوف فى وجه طغيان العرب على الغرب وقوفا سياسيا ودينيا . (الثانى) الأخذ بثروة الشرق الأدبية التى كانت أساسا للثقافات الغربية طوال قرون .

نتيجة لهذا اتخذ هؤلاء المستشرقون أمناء سر للملوك ، وانتدبوا سفراء وقناصل وتراجمة وموظفين فى سلك الجيش والسياسة الى بلدان الشرق ، ومنحوا القاب الشرف الفخمة كبارون وكونت ومنحوا كراسى التدريس فى أشهر الجامعات وعضوية المجامع العلمية الكبرى .

وقد أشار الباحثون الذين عرضوا لدراسات المستشرقين إلى ما تتسم به كتابات هذا الصنف منهم بالتعصب «فاذا كتب المستشرق المسيحى عن ديانات الشرق غير المسيحية فانه لا يكتب بذلك القلم الذى يكتب به فى الأدب والأخلاق والتاريخ ، لأنه لم ينس دينه ساعتئذ ، فالتعصب الدينى من أبرز عوامل الانحراف فى كتابات المستشرقين يضاف الى ذلك أخطاء الترجمة والنسخ فقد ترجم كازنوفا كلمة (أمى)، بكلمة شعبى ، وترجم كازميرسكى قول الله للملائكة (اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس أبى) ترجمها (أعبدوا آدم) . فضلا عن ضعف الحاسة الفنية والذوق فى مفاهيم البلاغة العربية ، فقد جمع (جب) لورد على لوردين ، وجمع (وستفلد) قطار على قطران ولقد كان تطبيق مفاهيم الغرب للمسيحية على الاسلام خطأ من أكبر الاخطاء فليس الاسلام كالمسيحية فى مفاهيمه ومقوماته ، ولم يقف

---

(١) ص ١٩٧ نفس المصدر

الاسلام يوما ازاء النهضة ولم يقاوم العلم ، ولقد كان الاسلام دائما دينا ودولة ، ولذلك فقد كان من الظلم أن يحمل مفكرو الغرب على الاسلام نفس المعاول التى حملوها فى محاربة المسيحية ابان عصر النهضة بغية إقصائها عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بعد أن تبين عجزها .. وجمودها عن مسايرة التطور ، وبعد أن فسدت أساليب الكنيسة وظهرت أخطاء رجال الدين ، فى تسلطهم واستبدادهم وجحودهم ووقوفهم فى وجه الحرية والنهضة وغلوهم فى التعصب .

ولقد كان الاسلام ازاء النهضات والحضارة متطورا دائما وقادرا على الاستجابة للبيئات المختلفة والعصور المتوالية ، وقد دخل هذه التجربة من قبل ولم يكن له كهنوت ولا وساطة بين الله والخلق .

واذا كان ثمة مغمز فانه لم يكن فى الحق بالنسبة للاسلام كدين وانما كان للمسلمين أنفسهم ، فقد كان الاسلام أبان الغزو الغربى محجوبابالمسلمين أما الاسلام فى جوهره ومقوماته وأصوله فقد ظل حيا نابضا بالحياة ، هاديا مضيئا طوال القرون ، يعطى الايجابية والحرية والقوة ، ولكن الأمر كان فى انصراف المسلمين عن مفاهيم الاسلام وضعف الحكومات وسيطرة الحكومات العثمانية أربعمائة عام متخلفة فى ميادين الحرب والسياسة ، مما أحل عصرا من الضعف والركود والتواكل والقوقعة وظهور طبقة من العلماء الجامدين التقليديين الذين أغلقوا باب الاجتهاد وأمنوا لصاحب السلطان ، مما خلق غشاء رقيقا من البدع والخرافات التى نسبت الى الاسلام بغير حق ، والتى حجبت فى نظر الغربيين جوهره ونقاءه وحملت فى ظلها طبقة كثيفة من الزيوف .

٣

اصطنع الغرب فى معركة التحدى للاسلام قوى ضخمة كان أبرزها الكتاب المتعصبون من المستشرقين وارساليات التبشير وزوار العالم الاسلامى غير المنصفين الذين كانوا ينقلون صورا سريعة قائمة على الإستعلاء والتعصب وكانت بعض الصحف الغربية أدوات رئيسية فى هذه المعركة وفى مقدمتها (جريدة التيمس) التى يمكن القول بأنها من أشد الصحف الغربية عداوة للاسلام وتأريثا لضرام الحملة عليه .

ويمكن القول بأن قوة الكلمة كانت تسبق حركة الارساليات التبشيرية وهى الأداة القوية لامدادها بالوسائل التى تتيح لها النجاح فى مهمتها ..

وقد تمثلت هذه الكلمة فى تأكيد السيطرة الغربية على العالم الاسلامى واتسع نطاقها فى مختلف ميادين : القومية والسياسة والاجتماع والتعليم وكان ميدان الدين بالذات ، والاسلام على وجه الخصوص أوسع ميادينها ، وهو ما عنينا بالكشف عنه فى هذه الدراسة على أن يكون للميادين الأخرى مجالها فى دراسات مستقلة ...

فالاستشراق الذى بدأ أول أمره لخدمة الكنيسة ولترجمة القرآن والرد عليه لم يلبث أن وسع نطاقه فى خدمة الاستعمار وعمد الى مقاومة الامتداد والتوسع الإسلامى ، هذا الامتداد الذى عبر إلى اوربا وسيطر على أسبانيا واجتاح

جنوب فرنسا حتى توقف فى معركة بواتيه (بلاط الشهداء) ونفذ الى جزيرة صقلية وأخذ يسيطر على جنوب ايطاليا معقل المسيحية ، وكان من نتيجة ذلك أن تألف عام ١٣١١ مؤتمر فينا الذى ترأسه البابا كليان الخامس وتقرر فيه تأسيس مدارس خاصة فى برلين وبولون وأكسفورد وسلمنكة تدرس فيها العربية والعبرانية والكلدانية لتخريج وعاظ يستطيعون تنصير المسلمين أو تشكيكهم فى عقائدهم .

ومن ثم فان البعثات التى حملت طابع العلم الى العالم الاسلامى لم تكن خالصة لوجه العلم وحده وأن اختفت وراء أسماء الجامعات والمعاهد العلمية وانما كانت بعثات سياسية تقدم تقاريرها إلى وزارات المستعمرات ، وكيف كانت بعثات علمية فى صحراء سينا وجزيرة العرب قبل الحرب العالمية الأولى مقدمة للغزو الذى قاده «لورنس» نفس الرجل الذى كان يدرّس علم الآثار فى هذه البعثات العلمية .

ولم يقف الأمر عند هذه المدارس بل توسع فيما بعد الى انشاء معاهد لتكوين من يعملون فى السفارات والقنصليات والارساليات ، وقد صيغت لهذه المعاهد دراسات قوامها اللغة والدين والاسلام وفق مناهج مليئة بالشكوك والاتهامات تطبع هؤلاء على الاحتقار والكراهية والمقت لكل ما هو اسلامى عربى .

* * *

أما «التبشير» فهو احدى الحركات الكبرى للغزو الثقافى ، وقد سبق الاستعمار ومهد له ثم سار فى ركابه ، ونفذ خطة واسعة للقضاء على العقائد والقيم والثقافات الاساسية للعالم الاسلامى والأمة العربية .

واتخذ التبشير سلاح المستشفى والمدرسة أساسا لعمله ، مستعملا جهل الشعوب وفقرها .

وقد بدأ التبشير عمله ١٨٣٠ (وهو نفس التاريخ الذى بدأ فيه احتلال فرنسا للجزائر) بعد أن أقره البابوات ورسموا خطته ووضعت الدول الاعتمادات الضخمة له فى ميزانياتها ، وقد اتجه التبشير الى لبنان ومصر واتخذ منهما مركزين للوثوب على العالم الاسلامى ولم يلبث أن وسع نطاقه عن طريق المرسلين الأمريكيين واليسوعيين (١٨٢٧م بيروت - ١٨٥٥م أسيوط) .

ولم يكن من المتصور أن المبشرين فى إنشائهم للمعاهد والمستشفيات والأندية ومؤسسات البر والاحسان فى ظل الاعتمادات الضخمة والنفوذ القوى الذى يحميهم يقصدون الاحسان أو التعليم مجردا . لذلك كان المبشرون دائما هم الطابور الخامس لأممهم وعيونها على أهل هذه البلاد ، وكان من عملهم الأساسى بث الفتن والقلاقل واثارة الاضطرابات التى من شأنها التمكين لدولهم فى السيطرة على العالم الاسلامى ، وقد اشتغل المبشرون بدراسات الفكر والتاريخ وعلوم الاسلام وكانوا أوضح تعصبا وأصرح فى استهدافهم القضاء على مقومات العالم الاسلامى وخصائصه واثارة الشبهات حول الاسلام وخلق جو من الاضطراب الفكرى الذى ان لم يحقق نقل المسلمين من دينهم الى ديانة أخرى فلا أقل من أن يزعزع عقائدهم الأساسية وينقلهم الى صفوف الملحدين .

وكان الهدف من هذا العمل القضاء على المقومات الأساسية التى تدفع الى مقاومة الإستعمار والوقوف فى وجهه بأسلحة الاسلام ، ومن ثم تنشأ طبقة من

المؤمنين بالفكر الغربى المعجبين بالحضارة الغربية وما تحمله من عقائد ومذاهب ، ومن ثم يستطيع هذا الرعيل أن يحكم ويسيطر على مراكز القيادة ، وبذلك تزول نهائيا معركة المقاومة ويستسلم العالم الاسلامى للغرب على أساس من الاعجاب والتجاذب والالتقاء مع القيم الجديدة بعد اقصاء قيمه الأساسية .

ذلك أن هذا الخضوع كان هو أساس بقاء الاستعمار والنفوذ الغربى فى العالم الاسلامى بعد أن تنتهى المعركة العسكرية أو السياسية ، وبعد أن تنسحب أيضا القوى المحتلة ، حينئذ يجد النفوذ الأجنبى من الأجيال التى رباها وكونها فى معاهده ومدارسه وجامعاته خير من يحمل لواء الولاء له والايمان به .

وبذلك تنتهى حقيقة قيم الاسلام القائمة على حرية الفكر ، والتحرر من سلطان العقائد والمذاهب الأخرى ، وبقاء عنصر المقاومة للمستغل والمستبد أساسا حقيقيا للفكر الاسلامى .

ومن هنا كان نفوذ التبشير أخطر أثرا فى حملة التحدى فى ظل ذلك المخطط التى رسمته الارساليات التبشيرية وعملت على تنفيذه فعلا وهو :

* تشويه الاسلام والثقافة الاسلامية والتشكيك فى الأديان بصفة عامه .
* افساد الخصائص القومية فى العالم الاسلامى والعربى .
* خلق تخاذل روحى وشعور بالنقص مما يؤدى الى الخضوع للمدنية الغربية .
* توسيع شقة الخلاف بين الأديان والمذاهب والطوائف واثارة النزاع وتأجيج نيران الخلاف كلما هدأت .
* اخضاع العالم الاسلامى للاستعمار الغربى .

* اخضاع الثقافة والفكر الاسلامى للفكر الغربى .
* اعداد شخصيات قيادية لاتقاوم النفوذ الأجنبى بل تؤيده .
* القضاء على اللغة العربية بتغليب العامية والكتابة بالحروف اللاتيبية .

ويمكن القول بأن نفوذ التبشير كما تصوره الرسائل العديدة والأبحاث المختلفة قد استطاع أن يصل لما يحقق جانبا كبيرا من رسالته فى التشكيك فى القيم الاسلامية والتهوين من شأنها وادخال عناصر البلبلة والاضطراب الى اللغة والدين والتاريخ ، وغرس ثقافات متعددة متصارعة لخلق أجيال من مضطربى العقائد الذين لا يقيمون وزنا لتراثهم ولأمجادهم ولا للغتهم ومن المتسامحين مع الاستعمار والمتغربين

وقد استطاع التبشير بقوة الكلمة وبنفوذ الحكومات التابعة والصحف .. والبعثات أن يصل الى شيء كثير مما أراد .

واذا كان التبشير لم يستطع أن يحقق بعض ما كان يتطلع اليه بعد مائة عام وهو تحويل مجموعات ضخمة عن دينها الأساسى ، فانه استطاع أن يحقق هدفا لا يقل خطرا ، وهو اثارة الشبهات وخلق جو من الالحاد والتحلل والتنكر للقيم الأساسية وقد أشار الى ذلك «زويمر» فى تقريره الذى نشر فى ١٢ ابريل ١٩٢٦ يقول « .. لقد جربت الدعوة الى النصرانية فى أنحاء كثيرة من الوطن الاسلامى وأن تجاربى تخولنى أن أعلن أن الطريقة التى سرنا عليها لا توصلنا الى الغاية التى ننشدها فقد صرفنا من الوقت شيئا كثيرا ، وانفقنا من الذهب قناطير مقنطرة وألفنا ما استطعنا أن نؤلف وخطبنا ومع ذلك فاننا لم ننقل من الاسلام الى النصرانية الاعاشقا بنى دينه الجديد على أساس الهوى . فالذى

نحاوله فى نقل المسلمين الى النصرانية هو باللعب أشبه منه بالجد . وعندى أنه قبل أن نبنى النصرانية فى قلوب المسلمين ان نهدم الاسلام فى نفوسهم حتى اذا أصبحوا غير مسلمين سهل علينا أو على من يأتى بعدنا أن يبنوا النصرانية فى نفوسهم . ان عملية الهدم أسهل من عملية البناء فى كل شىء الا فى موضوعنا هذا ، لأن هدم الاسلام فى نفس المسلم معناه هدم الدين على العموم .. » .

ولعل هذا هو سر الحملات الضخمة التى شنها الفكر الغربى على الأديان ، وهو يقصد بها أيضا الحملة على الاسلام ذاته . ومن هنا نشأ ما اطلق عليه « حركة التغريب » وهى تحويل المسلمين عن مقومات – دينهم على مراحل ، وخلق الشبهات المختلفة أمامهم فى مختلف ميادين الفكر والاجتماع حتى يتخلصوا تخلصا كاملا من القيم الاساسية لشخصيتهم الاسلامية ، وهذا ما وصفه « خالد شلدريك » بالحرب الصليبية الجديدة .

ومن هنا حق لنا أن نكشف النقاب عن هذه التحديات لنعرف عمق جذور الهدف الذى يرمى اليه النفوذ الأجنبى فى العالم العربى ، عارضين ميادين هذه التحديات ، وكيف اندفعت هذه الأقلام فى تعصب أو جهل لخدمة أهداف الاستعمار الأساسية من محو معالم القيم الأساسية للاسلام ، واحلال قيم أخرى بدلا منها واذا لم يكن ممكنا تحويل المسلمين الى أديان أخرى فلا أقل من تشكيكهم فى أصول دينهم وإسباغ جو من ضباب الشبهات من حولهم .

ان كل ما نهدف اليه هو ايقاظ الفكر الاسلامى لمواجهة الخطر الذى يراد به بكشف الحقائق وتصحيح الأوضاع .

مراجع الفصل

الاسلام وآسيا : اوجين يونج .... ١٩٢٨ (القاهرة)

الغارة على العالم الإسلامى : أ.ل شانليه (ترجمة محب الدين الخطيب)

: ....١٣٥٠ القاهرة

المستشرقون : نجيب العقيقى ....١٩٣٧ بيروت

الاسلام والاستعمار : أنور الجندى .... ١٩٤٨ القاهرة

تاريخ الحضارة العربية : ناجى معروف وعبد العزيز الدورى١٩٤٨ بغداد

المستقبل للاسلام : محمد توفيق البكرى .... ١٩٠٨ القاهرة

التبشير والاستعمار : عمر فروخ .... ١٩٥٧ بيروت

الاسلام والنصرانية : محمد عبده .... ١٣٧٥هـ مصر

الشرق الجديد : الدكتور هيكل .... ١٩٦٢ مصر



(٢)
الهجوم على الإسلام



الهجوم على الاسلام

أعلن الفكر الغربى هجومه على الاسلام منذ اليوم الأول الذى استطاع فيه أن يسيطر على مقاليد هذا الفكر ويترجمه ويجعل منه القاعدة الأساسية للفكر الغربى الحديث ولمعالم الحضارة الجديدة التى بنت قوائمها على الأسس العلمية الاسلامية فى عالم الفلك والطب والكيمياء والجبر والحساب والفلسفة .

وكأنما أراد الغرب أن يعلن أن الفكر الاسلامى لا فضل له على يقظته ونهضته وأنه إنما استرد ثقافة الرومان وفكر اليونان القديم الذى ارتبط به منذ الف سنة فى ظل الحضارة الرومانية ، الذى جاءت الحضارة الغربية الحديثة ثمرة له ، وكان من رأى علماء الغرب اذ ذاك أن المسلمين لم يكن لهم فضل ، الا أنهم ترجموا تراث اليونان والرومان ، ثم استرده منهم خلفاءُ الرومانية ، من أبناء أوربا ، إذن فليس هناك فضل يذكر ، إلا فضل حفظ المسلمين لهذا التراث ، بل ان بعضهم قد ذهب إلى انكار حتى هذا الفضل القليل فَاتَّهمَ المسلمون بأنهم انما قصروا فى العمل الذى تصدوا له ، وأنهم ترجموا علوم الرومان ولم يترجموا آداب اليونان ، وأن هذه الترجمات كانت مليئة بالأخطاء والأغلاط ، مضطربة أشد الاضطراب وأن الذين قاموا بهذه الترجمة لم يكونوا الا جماعة من النساطرة والمسيحيين .

ومنذ اليوم الأول لترجمة القرآن ، ظهرت هذه الترجمات محرفة أبلغ التحريف ، وظهر معها فى نفس الصفحات كلمات فيها اتهام لهذا الكتاب –

المنزل الوحيد الذى لم يدخله تحريف ، وقد اتصلت هذه الاتهامات بمعانى القرآن وأصول الاسلام وشرائعه وبالنبي وحياته وأعماله .

ثم لم تلبث الأيام أن كشفت عن أسماء لا معة لها وزنها فى مجال الفكر الغربي وقد أخذت تتصدى للاسلام نفسه مهاجمة اياه ، محاولة إلقاء الشبهات على أصوله وأسسه ، فى أسلوب مليء بالهجوم العنيف والاتهام الصارخ على نحو بعيد كل البعد عن منهج العلم أو أسلوب العلماء ، ولم تكن هذه الحملة بهذه الصورة القاسية إلاخدمة للاسلام نفسه فان كثيرين ممن جذبهم الاسلام اليه وصحح مفاهيمهم فيه ، انما تأثروا بهذه الحملات وأنكروها ، واضطروا الى أن يعودوا الى كتب أخرى ربما تكون أكثر انصافا أو بعدا عن التعصب والمغالاة ، فلم تلبث هذه الدراسة أن كشفت لهم عن جوهر الاسلام وضيائه وفى عصرنا الحديث ظهرت كتابات متعددة تحمل طابع الخصومة العنيفة ، التى لاتحاول أن تعرض للاسلام كفكرة مجردة ، يمكن أن تدرس دراسة موضوعية لادخل فيها للهوى الخاص ولا الدافع المختبئ وراءها حين يتصل هؤلاء الكتاب بدوائر الاستعمار أو وزارات الخارجية أو غيرها .

فكتابات فولتير إمام حرية الفكر فى الغرب عام ١٧٤٢ بمسرحيته عن التعصب أو النبى محمد ودراسات الأب لامنس اليسوعى ومقالات « هانوتو » فى الاهرام سنة ١٩٠٠ التى أثارت المعركة مع الشيخ محمد عبده وحملات لويس برتران فى كتابه (أمام الاسلام) وكتاب مصر والمصريين لدوق داركور الذى رد عليه قاسم أمين بالفرنسية بكتابه (المصريون) ، وحملة الكردينال لا فيجرى على «الرق فى الاسلام» وقد رد عليه احمد شفيق باشا وحملات

كرومر فى كتابه مصر الحديثة ومرجليوث فى مقاله المشهور مستقبل الاسلام وسكوت وريبنان وزويمر فى كتابه « الاسلام : ماضيه وحاضره ومستقبله » وردم لاندو وماسنيون ودكتور راطسون مدير الجامعة الأمريكية (١٩٣٣) وسبيرز.

هذه الحملات كانت تمثل فى مجموعها صورة من معركة التحدى العنيف للاسلام ، وفق خطة مرسومة ، على النحو الذى من شأنه أن يزلزل الرأى العام العالمى فى حقيقة الفكر الاسلامى ومفاهيمه وأن يثير الشكوك والشبهات فى أهل الدين نفسه ، فى ظل نظم التعليم والثقافة التى بدأ الاستعمار يبثها فى أقطار العالم الاسلامى ... المستعمرة فقد نشرت هذه الابحاث فى كل مكان وقصد أن تصل الى كل مكان ينتشر فيه الاسلام أو توجد جماعات المثقفين كالجامعات والمجامع العلمية ودوائر المعارف حتى توسم هذه الآراء بالسمة العلمية وتحمل معنى قداسة الكلمة المكتوبة فى مجلدات ضخام ، ومن هنا ظهرت دائرة المعارف الاسلامية باشراف المستشرق فنسنك مشحونة بالأخطاء والأغلاط والاتهامات .

* * *

ومن عجب أن تجد فيلسوفا عرف فى تاريخ الفكر الغربى بحرية الرأى .. كفولتير يكتب عام ١٧٤٢ قصة عن نبى الاسلام ، ويقدمها الى البابا بنوا الرابع ، وقد أطلق على مسرحيته « التعصب أو النبى محمد » وشحنها بحوادث وشخصيات مفتعلة قائمة على التخيل أكثر مما تقوم على الواقع التاريخى ، ثم لم يتحرز مثلا من الأخطاء الكبرى لحقائق يعرفها كل من يعرف تاريخ الاسلام فيجعل الزبير زعيما لسادة قريش المناهضين لمحمد ، وهو يوجه كتابه

على نحو مثير ، يفضح دخيلة النفس ، ويكشف عن الضعف البشرى لكاتب وصف بأنه حر الفكر ، فيقول فى تقديمه المسرحية :

: الى رئيس الديانة الحقيقية ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية ، أضع عند موطئ قدميك الكتاب ومؤلفه ، إن صاحب القداسة سيغفر ولا شك الجرأة التى يأخذ أسبابها أحد المؤمنين المتواضعين فى أن يهدى حبر أحبار الكنيسة الكاثوليكية الحقة هذه المسرحية . »

ثم يعرف من بعد أن فولتير الرجل الذى حمل على المسيح والكنيسة والأديان على نحو أزعج الدوائر ذات النفوذ قد أراد أن يترضى مرة أخرى هذه الدوائر بمهاجمة الاسلام ونبيه على هذا النحو المزرى بكرامة العلم والعلماء واحرار الفكر وبمثل هذه المذلة والمهانة فضلا عن انتقاض كل قواعد البحث العلمى أو الواقع التاريخى .

وقد كان لعمله هذا أثره الواضح فى نفوس من كانوا قد أغرموا فى العالم الاسلامى بالحديث عن نزاهة الفكر الحر ، فقد فجعوا فى كاتب وصف بأنه من مؤججى الثورة يتمسح بأعتاب أصحاب السلطان ويقدم ثمنا لذلك أفكاره الحرة ، وحتى أنصار هذا الكتاب والمعجبون به فقد حاولوا حين كتبو عنه كفولتير مثلا أن يتجاوزوا هذه القصة ، فلا يعرضوا لها كعمل من أعمال الكاتب له قيمته الفنية أو التاريخية .

أما الأب هنرى لامنس اليسوعى فقد غلب عليه طابع التعصب المذهبى ولم يتناول أبحاثه من وجهة النظر العلمية المحضة بل كان حفيا بأن يتهم

الاسلام فى كل ما يعرض له ، على النحو الذى يصطنعه الدعاة لا العلماء ، وقد بدأ مذهبه هذا واضحا فى دراساته عن الأمويين ، حيث كان ينسب إلى المسيحيين واليهود كل خير وفضل فى شبه الجزيرة ، أما المسلمون عامة والعلويون خاصة فقد حرص على سلبهم كل الفضائل ، وهو لم ينس عاطفته فى كل ما كتب عن النبى ، ومن ذلك مؤلفه عن حياة محمد الذى رفضت دوائر الفاتيكان نشره حيث خيف أن يؤدى ما فيه من طعن وتهجم الى احتجاج العالم الاسلامى ومن أردأ كتبه كتابه (فاطمة وبنات محمد) وهو على حد تعبير الدكتور «زكى حسن» يتهم رواة السيرة بأنهم مخترعون ، ويضرب كل فريق بالآخر ، فإذا رأى رواية فى مصلحة الشيعة اتهمهم بوضعها ، واذا رأى رواية تعلى شأن السنيين الصقها بكتابهم ، فضرب كل فريق بالآخر ليقنعك باضطراب هذه العناصر التى قامت عليها السيرة ، فاذا وجد فى الإسلام موضعا لفضل نسبه الى مصدر غير اسلامى أو فسره تفسيرا ماديا ، فهو يصف عائشة بأنها «محظية» ، ويحرض على استغلال بعض الاضطراب فى النصوص العربية التاريخية .

ويقول الدكتور زكى حسن : حسب المرء أن يراجع النصوص التى يبنى عليها لامنس كثيرا من أحكامه ليرى كيف كان يجحف فى تفسير بعضها وكيف كان يهمل مالا يتفق ورأيه ، وكيف أنه كان يغض الطرف أحيانا عن المناسبات فيستنبط من الشواذ قواعد ، ومن الحالات الفردية أحكاما عامة[1] .

---

(١) المقتطف (سبتمبر ١٩٣٧) ملحق خاص (فى مصر الاسلامية) ص ١٦٢

وقال ان له طريقة غريبة فى التهكم على النصوص العربية ، فضلا عن أنه يرهق النصوص ويحملها أكثر مما تحتمل ويستنبط منها أكثر مما تفيد ويغض الطرف عنها اذا كانت تثبت خطأ رأيه .

وقد هاجمه المنصفون من المستشرقين أمثال بيكرودمومبين وماسيه وقال فييت فى نعى لامانس بجلسة ١٠ مايو ١٩٣٧ لاعضاء المجلس العلمى المصرى : من الصعب أن نقبل كتاب (فاطمة وبنات محمد) فى ثقة ودون تحفظ ، فان التعصب والاتجاه العدائى يسودانه الى حد كبير ، وقد لاحظ المستشرقون هذا التعصب فى حينه .

وجملة القول فيه أنه يقرأ النصوص ليفسر بعضها على هواه ، أو يهمل مالا يتفق مع رأيه ، أو يستنبط من الشواذ قواعد ، أو يتخذ من الحالات الفردية أحكاما عامة .

وقد حاول لامنس فى أبحاثه المختلفة[1] عن حاضر الاسلام ومستقلبه أن يثير الشبهات وأن يتهم الاسلام بالاضمحلال والانهيار وأن يعلن تشفيه لسقوط الخلافة ، وهو حريص على أن يعلن أن الأقطار الغربية الحديثة هى عامل هام لهدم قوى الاسلام وكيانه ، حريص على أن يؤجج الخلاف بين السنة والشيعة ، ثم بين الحنفية والشافعية والمالكية وهكذا ثم هو يحاول أن يقسم المفكرين الى متطرفين ووسط وسلفيين ، ثم هو يحاول ان يغض من قدر وحدة الفكر الاسلامى ، ويقلل من إحصاء المسلمين .

ثم هو يعلن أن التعليم القرآنى فى تأخر مستمر ومطرد فى البلاد الإسلامية ،

---

(١) نظرة فى حاضر الاسلام المشرق (تشرين أول ١٩٣٠) ..

وأن تطور التعليم الرسمى فى المعاهد العالية والثانوية يتحرر شيئا فشيئا من تأثير الدين «حتى يصبح لا دينيا محضا» وأن دعاة التطور العصرى قد مدوا أصابعهم حتى داخل الجامع الأزهر فاغتنموا فرصة حاجته الى الاصلاح وتدخلوا فى ادارة الدروس التى حورت دون نتيجة تذكر» وأشار الى القلق الذى احدثته آراء الدكتور طه حسين وحاول أن يصل من ذلك الى القول بأن الاسلام يتلقى صدمات متوالية من شأنها أن تدفعه الى الانهيار .

ولهنرى لامانس أسلوب ملئ بالمكر والتعصب[1] واللؤم فى عرض الاتهامات للاسلام فهو لا يستطيع أن ينكر أن الاسلام حرم قتل الذرية ووأد البنات ولكنه يعرضه على نحو ماكر حيث يقول ان النبى دفع الى هذا التحريم «بحنينه الى الذرية بعد أن صار لطيما فى طفولته «ويستنكر ما نسبته السيرة للنبى من بنين وبنات فيقول ان كتاب السيرة فعلوا ذلك رغبة فى اعلاء شأن النبى ، وهو اذا قرأ أن النبى لم يرغم بناته على ترك أزواجهن الذين تأخروا عن اعلان إسلامهم ، فسره بأن النبى كان يتشرف بهؤلاء الأصهار ويعمل على الانتساب اليهم ويحرص على ودهم . وهو ان تكلم عن السيدة عائشة لم يجد من مفردات اللغة الفرنسية العتيقة إلا كلمة (Favarite) ليصف بها زوج النبى وأقرب ترجمة لها بالعربية (محظية) وهو يحرص على استغلال بعض الاضطراب فى النصوص العربية التاريخية ليثبت أن الصحابة كانوا لا يقبلون عن طيب خاطر أن يصاهروا النبى ولكنه يذكر فى موضع آخر أن رقية ابنة النبى كانت جميلة وأن عثمان بن عفان انما أعتنق الاسلام ليتزوجها ، وينسى لامنس أنه يذكر

(١) الدكتور زكى محمد حسن : المقتطف (ديسمبر ١٩٣٧)

فى موضع ثالث أن النبى كان يحرص على مصاهرة ذوى الحسب والنسب من المشركين ، وذهب لامنس الى أن أبا بكر وعمر وأبا عبيدة استولوا على أزِمَّةِ الحكم بعد وفاة النبي وذلك تنفيذا لخطة سابقة بينهم .

وقد وصف هنرى لامانس بين كتاب أوربا بالمورخ المتحزب على حد تعبير محمد كرد على الذى يقول « لقد أصبح العارفون هناك يأخذون كل قول له بتحرز شديد »(١) .

* * *

وإذا تركنا هنرى لامنس ، وجدنا أمامنا متعصبا خطيرا مثل « فنسنك » وله مبحثان فى دائرة المعارف الاسلامية يحملان هذه الروح من الاتهام والتعصب أولهما عن إبراهيم وثانيهما عن الكعبة وقد ترجم الدكتور حسين الهراوى(٢) ما قاله عن ابراهيم « كان اسبرنجر(٣) أول من لاحظ. أن شخصية ابراهيم كما فى القرآن مرت بأطوار قبل أن تصبح فى نهاية الأمر .. مؤسسة الكعبة . وجاء (سنوك هرجرونيه)(٤) بعد ذلك بزمن فتوسع فى بسط. هذه الدعوى ، فقال ان ابراهيم فى أقدم ما نزل من الوحى هو رسول الله ، أنذر قومه كما تنذر الرسل، ولم يذكر لاسماعيل صلة به ، ولم يذكر قط. أن ابراهيم هو واضع البيت ولا أنه أول المسلمين . أما السور المدنية فالأمر فيها على غير ذلك ، فابراهيم يدعى حنيفا مسلما ، وهو واضع ملة ابراهيم وقواعد البيت

---

(١) م٠ سنة ١٩٤٦ مجلة المجمع العلمى العربى (دمشق)
(٢) الهلال ــ ١٩٣٦
(٣) احد المستشرقين المتعصبين
(٤) سنوك هرجرونيه مستشرق هولندى له ابحاث محمله بالهوى

الحرام وسر هذا الاختلاف أن محمدا كان قد اعتمد على اليهود فى مكة فما لبثوا أن اتخذوا حياله خطة عداء ، فلم يكن بد من أن يلتمس غيرهم ناصرا ، هنالك هداه ذكاء مسدد الى شأن جديد لأبى العرب ابراهيم ، وبذلك استطاع أن يخلص من يهودية عصره ليصل حبله بيهودية ابراهيم ، تلك اليهودية التى كانت مجهدة للاسلام ، ولما أخذت مكة تشغل جل تفكير الرسول أصبح ابراهيم أيضا المشيد لبيت هذه المدينة المقدس «ولا شك أن عبارة فنسنك لها طابع يوحى بأنه باحث دقيق المراجعة لمستندات من آيات القرآن أحصاها ورتبها ولكنه فى واقع الأمر بعيد كل البعد عن الحق .

أما مرجليوث المستشرق البريطانى فانه يقول فى كتابه تاريخ العالم : اننا نشك فيما اذا كنا نعرف شيئا عن والد النبى ، لأن لفظة (عبد الله) تطلق على الشخص المجهول ، وربما كان لها هذا المعنى عند اطلاقها على والد النبى ، وادعى مرجليوث أن النبى كانت تنتابه النوب وأن المسلم معناه فى الأصل « الخائن » وعلل ذلك بأن هذه الكلمة مشتقة من اسم مسلم ، ورغم أن النبى عاشر بعض النصارى فاستفاد كثيرا من القصص واقتبس بعض أساليب التعبير وقد ظهر كتاب مرجليوث عن النبى عام ١٩٠٤ وله فصل مطول عن مستقبل الاسلام[١] رد فيه قول المؤرخ السياسى برايس الذى قال انه لم يبق من عمر الاسلام الا قرنان ..

وردد آراء خصوم الاسلام فقال : ان أحد المبشرين فى آسيا الصغرى ، أعلن عام ١٨٧٠ أن الاسلام لا يلبث أن يذوب ذوبان الثلج بين يدى العلم

(١) الهلال ـ ص ٩٠ م ١٦

والتمدن والنصرانية . ونقل عن الدكتور برد ين فى كتابه عن العرب والافريكان أن بعض الأعراب قال : ان الاسلام يذهب بذهاب الدولة العلية . ونقل عن ليز فى ختام كتابه عن سياحة فى تومبكتو أن الاسلام قد يبقى اذا ترك لنفسه ، أما اذا احتك بالتمدن الحديث فانه يموت لا محالة ، وقال إنه ليس من غرضه تمحيص هذه الآراء ، ولكنه يورد ملاحظاته الخاصة التى لاحظها فى أثناء زيارته للبلاد الاسلامية وعنده أنه لا يخلو قول القائلين بسرعة ذهاب الاسلام من وجه يستدعى النظر اذا استطاعوا أن يثبتوا خلوه من عوامل تنازع البقاء التى فى النصرانية واليهودية ثم خلص الى القول بأن المسلمين فى الدولة العثمانية تحت سلطة الأوربيين وأن جميع أعمال الحسابات والمال فى أيدى أهل الذمة . وأن المسلمين لا عمل لهم الا تقطيع الحطب وحمل الماء والعتالة وسوق الحمير وأن الجيش العثمانى يقوده ضباط من الافرنجة وقال : ان السلطة الاسلامية السياسية قد أخذت فى التقهقر منذ مدة طويلة حتى أصبح المسلمون الخاضعون لغير المسلمين عام ١٨٧٠ نحو ثلثى المسلمين كافة واخذت هذه النسبة تزداد بتوالى الأعوام حتى أصبح الآن المسلمون تحت سلطة غير المسلمين . ومنهم نحو النصف تحت سلطة الانجليز .

أما أرنست رينان فقد حمل على الأديان : وعلى المسيحية بالذات حتى عدُّ من اشد الفلاسفة انتقادا عليها ، ومؤلفاته (حياة يسوع ، وتاريخ الرسل) ، وأصل الانسانية ، والقديس لويس) طافحة بالانتقاد فهو ينكر لاهوت السيد المسيح ، ويزعم أنه فيلسوف يميل الى الامور الرمزية الغامضة .

وقد هاجم « الساميين » وقال انه ليس فى فطرتهم الفلسفة ولا البحث عن الجديد ولا المقدرة على السياسة ولا الحرب ولا النظام وكان هجومه على الاسلام فى أول الأمر عنيفا وعاصفا فقد صور النبى محمدا كرجل مخادع ودجال وقرر أن الذى أسس الاسلام وشيد صرحه هو « عمر » ، لأنه يماثل القديس بولس فى المسيحية .. وقال ان الفلسفة الاسلامية ما هى إلا الفلسفة اليونانية مخطوطة بخطوط عربية ، ولم يهضمها العرب لأن الاسلام لا يسمح بحرية التفكير وروح النقد ، وقال رينان ان الاسلام بعد كفاح دام عدة قرون ترك قلوب العرب معلقة بين سور مختلفة من التوحيد السامى ، فهو بعيد كل البعد عن كل ما يصح أن يدعى اعتمادا على النظر العقلى أو العلمى ، فالاسلام كان فى الواقع مضطهدا دائما للعلم والفلسفة وقد انتهى به الأمر الى كظم أنفاسهما ومن أجل هذا لم تبد فى حضارة الاسلام حركة فكرية ذات طبيعة غيردينية(١)

* * *

اما مستر سكوت فقد ذكر فى كتابه عن الاسلام الذى أصدره ١٩١٥ أن المسلمين يرون أن أول واجب عليهم هو نشر الاسلام والطريقة التى يؤدى بها هذا الواجب هو محاربة غير المسلمين حروبا غير منقطعة ، وذلك لتحويلهم عن دينهم ، ولا يمكن أن توجد للمسلمين إلاسياسية واحدة ووجهة واحدة هى الحروب الدائمة مع غير المؤمنين حتى تتبع الهيئةا لاجتماعية شريعة محمد .

* * *

---

(١) السياسة اليومية ــ ١٩٢٣\٤\٥ محاضرة الشيخ مصطفى عبد الرازق عن رينان فى الجامعة المصرية .

اما كيمون الذى نقل رأيه هانوتو فى حملته على العالم الاسلامى فقد دعا الى نسف الكعبة ونقل قبر محمد الى متحف اللوفر .

وليس هانوتو الا صورة من عديد من كتاب الغرب الساسيين الذين يحملون فى تضاعيف كتاباتهم محاولة إخضاع العالم الاسلامى للنفوذ الأجنبى أمثال لويس برتران فى كتابه (أمام الاسلام) الذى يقول فيه أن المسلمين متأخرون وقذرون ولا شرف لهم ومتعصبون تعصبا شديدا وغير قابلين للتمدن الا بواسطة الغرب الذى يحمل أمانة تمدين العالم ، وفى نفس المجرى تجرى كتابات دوق داركور (مصر والمصريون) ومثل هذا وفى نفس الخط. ما قاله الدكتور راطسون مدير الجامعة الامريكية[1] «نلاحظ. أن المعتقدات الدينية الاسلامية والمبادئ الخلقيه آخذة فى الانحلال ، وأن تلك المعتقدات والمبادئ غير ملائمة للحالة المتأخرة أينما وجدت فالمعتقدات القديمة آخذة فى التفكك لأن الجيل الناشئ الذى نتصل به نراه مهتما كل الاهتمام لا بالاسلام بل بالمسائل المادية وبالالحاد .

وأن «الاسلام» آخذ فى الانحلال باعتباره قوة لضبط. الحياة والأخلاق ، ولكنه حيثما لا يزال يقاوم فأمر غير واف ، وهو من الناحية الكلامية متناقض مع العلم أشد التناقض من الناحية الخلقية ولم يبحث قط. ظروف الحياة المدنية وقال اننا فى سياستنا الدينية نهتم بالمحتويات لا بالأسماء فنحن نسر حين نستطيع أن نجعل فتى مسلما يقبل مبادئ المسيحية ووحى المسيح ودعوة

---

(١) السياسة الاسبوعية : ١٠ يوليو ١٩٣٣

الناس لاتباع الله وطريقه فى الحياة فان هذه المبادئ تنمو بنفسها فى حياة ذلك الفتى فلا بد من يوم يأتى اليه فيه من يسميه باسم اخر يميز طابع حياته عن الطابع العادى للعالم الاسلامى ، ان الطالب الذى يتركنا يمكنه أن يعتبر نفسه مسلما غير أنه فى هذه الحالة يكون شخصا آخر غير الذى جاءنا .

وقال ان خطيب جبل الزيتون أعلن أن الغرض هو قتل الاسلام لاستعباد المسلمين . كما أعلن أن السياسة الاستعمارية لما قبضت من نصف قرن على برامج الدين فى المدارس الابتدائية أخرجت منها القرآن ثم تاريخ الاسلام وبذلك أخرجت ناشئة لاهى مسلمة ولا مسيحية ولا يهودية ، ناشئة مضطربة مادية الأغراض لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقا فلا للدين كرامة ولا للوطن حرمة ، وقال مدير الجامعة الأمريكية انهم يراقبون سير القرآن فى المدارس الاسلامية ، ويجدون فيه الخطر الداهم ، فالقرآن وتاريخ الاسلام هما الخطران العظيمان اللذان تخشاهما سياسة التبشير المسيحية) .

* * *

وهكذا امتدت هذه الحملة من نطاق البحث العلمى الى الصحافة الى المؤلفات المختلفة وبرز قادتها الفرنسيون والانجليز والأمريكيون من المسيحيين واليهود جميعا ، ولم تقف عند هذا الحد بل تعدته الى دوائر المعارف المختلفة وجميعها تحمل هذه المعانى ، وأبرزها دائرة المعارف الاسلامية ، وقد عرضنا لصورة من مباحثها فيما كتب فنسنك فى مادة «ابراهيم» .

وقد حملت مواد هذه الموسوعة «نزعة من التعصب» على حد تعبير - (محمد كرد على) فى خطابه الى صديقه «هوتسما[1]» الهولندى رئيس تحريرها وأن هـذه المواد ممثـلة فى كتابات : لا منس (البلجيكى) . . . وكراتشكوفسكى (الروسى) وهوار (الفرنسى) .

ومنهجهم فى ذلك[2] هو تحريف آيات القرآن . وحذف ما لايروقهم وخلط الآيات القرآنية بأبيات من الشعر ، وجعل الأحاديث النبوية من كلام بعضهم ، فهم مثلا يقتطعون جملة واحدة من نص طويل أو يوردون الخرافات المنقولة من كتب الوضاعين والقصاصين ، ويدعون أنها منقولة من كتب الثقات .

كما تعمد كتاب دائرة المعارف تجاهل كثير من الأعلام وقد أحصى كرد على من هؤلاء كثيرين منهم : عبد الحميد الكاتب واحمد بن يوسف وعمرو ابن مسعدة وعبد القاهر الجرجانى وأبو عبد القاسم بن سلام ، وأبو هلال العسكرى ، وابن الخياط الكفيف ، وابن خاتمة الأندلسى ، وابن عيينية ، وابن الصيرفى ، والداهراتى ، وملك اليمن المؤلف عمر بن يوسف وعمارة بن حمزة ، وابن طولون الصالحى ووصفها الباحثون بانها[3] ناقصة فيها عبارات نابية عن الحق مغموسة بالتعصب .

* * *

---

(1) مذكرات محمد كرد على ج ٣ صفحة ٨٤٢

(2) مجلة المجمع العلمى العربى م٢

(3) صدر عام ١٨٩٣

وإذا كنا نتجاوز عن كتابات أمثال دوق داركور مثلا الذى يقول فى كتابه (Egyple dles Egyptle ns) (L) ان السر فى تأخر الفكر فى مصر يرجع إلى الاسلام ، فالدين هو السبب الأساسى لهذا التأخر الذى لحظه فى كل بلد إسلامى ، ذلك لأن الاسلام لايحض على البحث فى العلوم غير الدينية وبذلك احتقر المسلمون علوم الغرب واعتقدوا أن القرآن قد حوى بين دفتيه علوم الأولين والآخرين وأن كل ما عداه باطل .. ، اذا كنا نتجاوز عن هذا لأن كاتبه رجل سياسى متصل بنفوذ دوائر الاستعمار أو نتجاوز عن أقوال كرومر باعتباره ممثلا لدولته وليس مفكرا .

أو نتجاوز عن قول القس صمويل زويمر فى كتابه عن[الاسلام :ما ضيه وحاضره ومستقبله]لأنه «مبشر» وداعيه لدينه فى قوله مثلا : لقد تساءل اللورد كرومر مرة ، هل يبقى الاسلام اسلاما اذا دخل عليه الاصلاح فأنا أقول بصفة قطعية إنه لا يبقى كذلك ، لأن الاصلاحات تجهز عليه فالأركان الأساسية الموجودة فى الدين الاسلامى كالحج وتعدد الزوجات والطلاق لاتستطيع الثبات فى وجه تيار المدنية الغربية الجارف » .

مثل هذا أو غيره قد يحتمل ، وإن كان يمثل جزءا من حملة التحدى الضخمة المتسعة الأطراف المنبثة فى الآفاق ، لتشويه الاسلام وهدم مفاهيمه وتزوير معالمه فى نظر الغربيين أولا والمسلمين بعد ذلك .

ولكن كيف يقبل مثل هذا التزوير من العلماء فالمسيو «سينوبوس» أكبر مؤرخى فرنسا ، وقد أمضى أكثر من ستين عاما يتعلم التاريخ ويعلمه ، ومع ذلك فما استطاع أن يتحرر من لوثة التعصب فهو يقول : فى كتابه «تاريخ

الحضارة » أن صاحب الرسالة كان رجلا جبانا سوداويا تنتابه عوارض من الحمى وتعروه نوبات عصبية » .

أو « دوزى » مثلا الذى يقول : إن معظم آيات القرآن كتبت بلغة عربية تكاد تكون آية فى الركاكة ...

أو قول صاحب كتاب فلسفة الحضارة ، نقلا عن (جيبون) فى كتابه عظمة المملكة الرومانية وانحطاطها من أن الفاتحين من العرب فى ديار الغرب كانوا من أبناء النصرانيات اللائى تزوجن من المسلمين فأخذوا منهن أطهر ما فى الدم المسيحى ، ولئن دانوا بالاسلام وهم عرب بألسنتهم وأسمائهم وأصول آبائهم فانهم لم يكن فى دمهم من الدم العربى غير واحد من ستة عشر فقط . أو أن المسلمين عند ما وصلوا الى شمال افريقيا ألفوا شرب الخمر .

أو قول يونج إن الجيش الاسلامى الذى غزا فرنسا عام ٧٣١ كان خمسمائة ألف على الأقل مع أن جيش الأندلس كان ١٢ ألفا ومن ذلك ما أصدره رينان من أحكام جائرة على المسلمين فى كتابه (بعثة فينيقية) عند مازار الشام ١٨٦٠ ليجرى بعض حفريات فى جزيرة أرواد فرأى من سكانها بعض غلظة فقال إن المسلمين كلهم منحطون . وجعل معاملة فردية فى حادث معين مبررا لاصدار أحكامه »[1] ... .

وعلى هذا النحو سار كتاب الغرب وفلاسفته ومستشرقوه وباحثوه وهو ، اتجاه مضلل منحرف ، كان يستهدف تدمير قيم الاسلام وتحطيم مقوماته وإن كان كتاب الاسلام لم يتوقفوا لحظة عن متابعة هذه الحملة والرد عليها ، أولا بأول ، فى يقظة واضحة ، وكان أقدرهم على ذلك رشيد رضا فى المنار

---

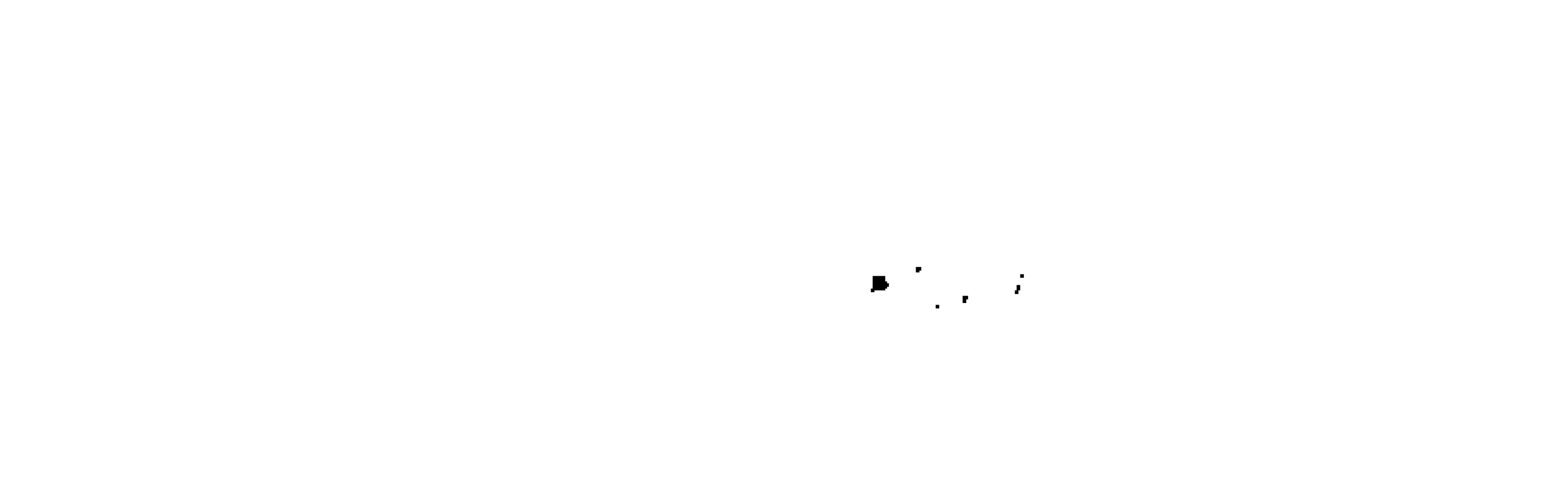
(١) محمد كرد على ـ اغلاط الافرنج ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ١٩٤٦ .

ومحب الدين الخطيب فى الفتح وفريد وجدى وعلى يوسف ، ومصطفى الغلاييني وعبد القادر المغربي والدكتور هيكل وعشرات من أبرز الكتاب فضلا عما كان للصحف المصرية من اهتمام واسع أتاح لها أن توسع لها المجال كما فعل المؤيد والبلاغ وكوكب الشرق والسياسة اليومية . . .

غير أن هذا التحدى على الصورة التى وقع بها ، وأتيحت له فرص الإذاعة والنشر – وما صورناه ليس إلا جزءا ضئيلا منه – كان يمثل هدفا ضخما واضح المعالم فى حرب الإسلام ، ودعوته ونبيه وتشريعه .

كتابات خصوم الإسلام

مرجليوث	: مستقبل الاسلام (الهلال م ١٦) نوفمبر ١٩٠٤ . محمد وظهور الاسلام ١٩١١ .
هانوتو	: الاسلام والمسلمون ١٩٠٠ (رد عليه الشيخ محمد عبده) .
زويمر	: الاسلام ماضيه ، حاضره ، مستقبله .
لويس برتران	: امام الاسلام (كوكب الشرق ١٧ مارس ١٩٢٦)
دوق داركور	: المصريون (رد عليه قاسم أمين) ١٨٩٣ .
كردينال لافيجرى	: الرق فى الاسلام (رد عليه أحمد شفيق باشا) .
كرومر	: مصر الحديثة (رد عليه محمد فريد وجدى ومصطفى الدرينى سنة ١٩٠٨) .
الأب لامنس اليسوعى	: نظرة فى حاضر الاسلام (المشرق) (تشرين أول ١٩٣٠) .
فولتير	: مسرحية التعصب أو النبى محمد ـ ١٧٤٢م .
دكتور واطسون (مدير الجامعة الأمريكية)	: الاسلام فى العصر الحديث (السياسة الأسبوعية ١٠ يوليو ١٩٢٣) .



(٣)

من الهجوم الى الدفاع



من الهجوم الى الدفاع

كان الفكر الاسلامى بلا ريب وبإجماع الباحثين من المصادر الأساسية ، للثقافة الغربية المعاصرة وللفكر الانسانى العالمى الحديث ، كما كانت علوم الاسلام من أسس هذه الحضارة .

وقد جحد الفكر الغربى هذه الحقيقة ، وحمل على الاسلام حملته الظالمة دون تقدير لأى إنصاف أو رعاية لحق غير منكور وأذاع على لسان أعلامه وكتابه أن الفكر الاسلامى مضطرب وناقص ، وأن الاسلام نفسه ملئ بالقصور والعجز على النحو الذى كشفت عنه كتابات فولتير ولاهانس وفنسنك وغيرهم من أقطاب الفكر الغربى الحديث ..

وتوالت هذه الاتهامات وتتابعت على ألسنة السياسيين ودعاة الكنيسة ورجال التبشير والمؤرخين والصحفيين .

وحاولت أن تأخذ طابع العلم والبحث القائم على الأصول والمراجع والوثائق وهدفها أساسا تأكيد المشاعر الأساسية فى النفس الغربية بكراهية الاسلام والحقد عليه واحتقار أهله ، وحتى تكون حجابا كثيفا أمام المثقفين فلا يصلوا الى حقيقة الإسلام وجوهره إلا من خلال هذه الأبحاث .

غير أن الاسلام بقوته الذاتية وقدرته الكامنة فى أصوله وأسسه وقيمه قد استطاعت أن تشق طريقها بقوة ، وأن تحفر مجرى جديدا فى الفكر الغربى ، لم يلبث هذا المجرى أن توسع فأصبح تيارا قويا .

لقد استطاع الاســلام عن طريق كتابات الغربيين أنفسهم التى تحمــل الخصومة والتعصب أن يكشف عن نفسه ، وأن يصل إلى قلوب الباحثين ... المنصفين المتطلعين إلى الحقيقة والذين لم يتورطوا فى هوى خاص أو صلات سياسية مع دوائر الاستعمار ، ومن ثم اقتحم هذه النفوس والقلوب فى بساطة ويسر وإشراق ، وتمكن من السيطرة عليها حتى دفع أهلها الى أن يكتبوا كلمة الحق ، وأن يتحولوا عن معتقداتهم القديمة ، وأن يؤمنوا به إيمانا كاملا ، وأن يثقوا به ثقة فكر وثقافة ، ومنهم من أنصفه بخير ما أنصفه به أهله ، ومنهم من آمن به إيمانا واعتنقه سرا أو علانية ، وقد آمن هؤلاء وأولئك بأنه السبيل الوحيد الى خير الانسانية والنظام الأمثل للحياة البشرية والسناد الحقيقى للحضارة الحية ، وأنه هو الذى يستطيع أن يحميها من الدمار والهزيمةوالسقوط.

وبذلك استطاع الاسلام بقوته الذاتية أن يحقق «غزوة جديدة» للفكر الغربى هى أشد قوة وبأسا من غزوته القديمة التى أنكرها جحود الغرب ، وتمكن من أن يحفر مجرى قويا لتيار ضخم يرى فى الاسلام منفذا من اضطراب البشرية وأمنا لقلق الانسانية .

وليس معنى هذا أن الفكر الغربى منصف أو أنه قد تخلى عن عقائدهالأساسية فى الايمان بالوثنية اليونانية والثقافة الرومانية التى صاغ على أسسها «المسيحية الأوربية» التى تختلف اختلافا كاملا وأساسيا عن المسيحية الحقيقية التى نعرفها فى الشرق . هذه المسيحية التى قادت المعارك الصليبية وحملت لواء سحق كل ما سوى الغرب من قوى ، والتى بعدت بعدا كبيرا عن الأسس التى جاء بها المسيح سلاما على الأرض ومحبة للناس . . .

ليس معنى هذا أن الفكر الغربي قد تخلى عن تعصبه العميق وحملاته العنيفة وطعناته المستمرة للاسلام وقيمه وتاريخه ولغته وفكره ...

ولكن معنى هذا التيار هو أن للاسلام قوة ذاتية تفرض سلطانها على العقول المجردة وان المقارنة المنصفة بينه وبين العقائد تكشف عن جوهره البسيط السمح النقى .

ولقد حملت كتابات المنصفين صورة الاعتذار عن عنف الخطأ الذى ساقته كتابات المتعصبين حتى أن كارليل وهو فى مقدمة من تصدوا لكشف الحقيقة يقول : لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغى الى ما يظن من أن دين الاسلام كذب وأن محمدا خداع مزور وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فان الرسالة التى أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا لنحو مائتى مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذى خلقنا ، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء كذبة وخدعة .

أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأى أبدا ، ولو أن الكذب والغش يروجان « عند خلق الله » هذا الرواج ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول ، فما الناس إلا بله ومجانين ، وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها ألا تخلق . فوا أسفاه ما أسوأ مثل هذا الزعم وما أضعف أهله وأحقهم بالرثاء والمرحمة ـ وبعد فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما فى علوم الكائنات ألا يصدق شيئا البتة من أقوال أولئك السفهاء فإنها نتائج جيل كفر وعصر جحود والحاد

وهو دليل على خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح فى حياة الأبدان .
ولعل العالم لم ير قط. رأيا أكفر من هذا وألأم ، وهل رأيتم قط. معشر الإخوان أن رجلا كاذبا يستطيع أن يوجد دينا عجبا ، والله إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبنى بيتا من الطوب ، فهو اذا لم يكن عليما بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك فما ذلك الذى يبنيه بيت ، وإنما هو تل من الأنقاض وكثيب من أخلاط. المواد ، نعم وليس جديرا أن يبقى على دعائمه اثنى عشر قرنا يسكنه مائتا مليون من الأنفس ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن ، وانى لأعلم أن على المرء أن يسير فى جميع أموره طبق قوانين الطبيعة والا أبت أن تجيب طلبته وتعطيه بغيته ، كذب والله ما يذيعه أولئك الكفار . زخرفوه حتى خيلوه حقا ... هو زور وباطل ، وان زينوه حتى أوهموه صدقا ، ومحنة والله ومصاب أن ينخدع الناس شعوبا وأمما بهذه الأضاليل وتسود الكذبة وتقود بهاتيك الأباطيل ، وانما هو كما ذكرت لكم من قبيل الأوراق المالية المزورة يحتال لها الكذاب حتى يخرجها من كفه الأثيمة ويحيق مصابها بالغير لا به وأى مصاب وأبيكم ؟ مصاب كمصاب الثورة الفرنساوية وأشباهها من الفتن والمحن تصبح بملء أفواهها « هذه الأوراق كاذبة »[1] .

٣ ـ أما « جوستاف لوبون » فانه يكشف عن عجز النفس الغربية فى الإعتراف بالفضل لأصحاب الفضل وينعى ذلك عليهم فى عبارة صريحة » .
« عزيز على أبناء قومنا أن يقرروا بأن الرواية المسيحية لم تخرج من ظلمات الهمجية الا بفضل الكفار وليس بهين قبول هذا الأمر المحض ظاهرا » ..

(١) كتاب الابطال تاليف توماس كارليل : ترجمة محمد السباعى ـ ١٩١١

ويقول «ان استقلالنا الفكرى لم يكن فى غير الظواهر ، وأننا لسنا من أحرار الفكر فى بعض الموضوعات . . .

وقد تراكمت أوهامنا الموروثة فى الاسلام والمسلمين بتعاقب القرون فصارت جزءًا من مزاجنا وتشبه هذه الأوهام المتأصلة التى أصبحت طبيعة ثانية فينا حقد اليهود الخفى العميق على النصارى . فاذا أضفنا إلى أوهامنا الفاسدة الموروثة على المسلمين الزعم الباطل الآتى الذى زاد مع القرون بفعل ثقافتنا المدرسية التقليدية البغيضة : وهو أن اليونان واللاتين هم وحدهم منبع العلوم والاداب فى الزمن الماضى أدركنا السر فى جحودنا لفضل العرب العظيم فى تمدين أوربا

ويتراءى لبعض الفضلاء أن من العار أن تكون أوربا مدينة فى خروجها من دور التوحش للعرب الكافرين ولكن من الصعب أن يحجب مثل هذا العار الوهمى وجه الحقائق » .

ويقول «والسهولة التى تنتشر بها شريعة القرآن فى العالم باهرة والمسلم حيث يمر يترك خلقه ودينه ، والاسلام ينتشر أينما حل ولم تستأصل شأفة الاسلام بعد أن رسخ ، ولقد أصاب مسيو دوفال حيث قال «من فضل الاسلام واحسانه : زوال الأصنام والأنصاب عن الدنيا وتحريم القرابين البشرية وأكل لحوم الانسان وحفظ حقوق المرأة وتقييد مبدأ تعدد الزوجات وضبطه وتوطيد أواصر الأسرة وجعل الرقيق عضوا فيها وفتح أبواب كثيرة لتحريره ، وتهذيب الطبائع العامة ورفع مستواها بالصلاة والزكاة وتثقيف المشاعر بالعدل والانصاف واقامة المجتمع على أسس قوية قويمة .. ومقاومة المنكرات بالعدل الإلهى .. »[1] .

---

(١) حضارة العرب تأليف جوستاف وترجمة عادل زعيتر ــ ١٩٤٥

٣ ـ ويصف خالد شلدريك المستشرق البريطانى المسلم كيف أن كتب الخصومة للاسلام هى التى هدته الى الاسلام وكشفت أمامه الطريق الى الحق فيقول «لم أتلق هذا الدين فى أول الامر من كتبه ولكنى تلقيته من كتابات الطاعنين عليه . لقد حملنى البحث والتأمل الى درس الديانات .. الأخرى ، فدرست البوذية والبرهمية وسائر الأديان وفى دور الكتب العامة بانجلترا بحوث عن كل دين ما عدا الاسلام ، فان الكتب التى ألفت عنه مملوءة بالتحامل والمطاعن والعرض الظالم وزعموا ان الاسلام ليس دينا مستقلا ، ولكنه أقوال محرفة عن كتب المسيحيين وقد تساءلت فى نفسى ، اذا كان الاسلام لا أهمية له الى هذا الحد فلماذا هم يبذلون كل هذه الجهود .. للتحامل عليه ومقاومته وتوجيه المطاعن اليه ، وقد وقر فى نفسى أنه لولا أن الاسلام دين يخشاه هولاء الناس ويحسبون حسابا كبيرا لما فيه من القوة والحيوية ، لما بذلوا كل هذه الجهود لمقاومته والطعن فيه وتشويه سمعته ، لذلك عزمت على قراءة هذه الكتب التى كتبت عنه واحدا واحدا . والاسلام لايخفيه انتقاد منتقديه ، فمنتقدوا الاسلام انما يظهرون وجهة نظر خصومه ، ومن هذا مصلحة له وقوة ودعوة ، والحق يبدو مهما حاول المبطلون إخفاءه».

٤ ـ أما «أميل درمنجم» فانه يمثل قوة المد فى هذه الحركة ، حيث يعلن فى جرأة أخطاء المستشرقين وتحيزهم ويقول «انه لا يوجد أحد فى الدنيا أمكنه أن ينكر وجود محمد ولكن وجد من ينكرون بعض ما جاء فى ترجمة محمد فى الكتب العربية . أما من الجهة الأوربية فقد كانت الأوهام والعداوات الدينية تحول دون درس حقيقى علمى لعظمة منشئ الإسلام » .

وقال إنه من القرن الثانى عشر إلى القرن التاسع عشر أرتكبت أغلاط كثيرة ارتكبها أمثال باسكال وريموندول وبوستل ورولان ورنان وفولتير.منتسكيو .

وقال إن أكثر العداوة بين المسيحيين والمسلمين إنما جاءت من قبل المسيحيين وقد أيد هذا (ل . جوفارا) فى كتابه مائة مشروع لتقسيم تركيا [1] .

٥ ــ وقد عاد فولتير فغير رأيه فى قاموسه الفلسفى فقال : لقد نسبنا إلى الإسلام كثيرا من السخافات وهو فى الحقيقة خلو منها ، ولكن كهنتنا كتبوا كتبا كثيرة فى ذم الأتراك ، واتفق ان كان الأتراك مسلمين ، فأصيب الإسلام على حساب غيره » [2] .

٦ ــ واعترف هنرى دى شامبون مدير (ريفويار لمنتر) الفرنسية بالآثار التى عادت على أوربا نتيجة لتوقف المد الاسلامى فى أوربا بعد معركة بواتيه عام ٧٣٢ م » لولا انتصار جيش (شارل مارتل) الهمجى على تقدم المسلمين فى فرنسا لما وقعت فرنسا فى ظلمات القرون الوسطى ، ولما أصيبت بفظائعها ، ولا كابدت المذابح الأهلية الناشئة عن التعصب الدينى والمذهبى ، ولولا ذلك الإنتصار البربرى على المسلمين لنجت أسبانيا من وصمة محاكم التفتيش ولولا ذلك لما تأخر سير المدنية ثمانية قرون ، ونحن مدينون للمسلمين بكل محامد حضارتنا فى العلم والفن والصناعة ، مع أننا نزعم اليوم أن لنا حق السيطرة على جميع الشعوب العريقة فى الفضائل ، وحسبها أنها كانت مثال الكمال البشرى فى مدة ثمانية قرون بينما كنا يومئذ مثال الهمجية ، وإنه لكذب

---

(١) حاضر العالم الاسلامى . تلخيص شكيب ارسلان لكتاب حياة محمد لاميل درمنجم

(٢) المؤيد ــ ١٩ مارس ١٩٠٨

وافتراء ما ندعيه من أن الزمان قد اختلف وأنهم صاروا يمثلون اليوم ما كنا نمثله نحن فيما مضى » ..

٧ ـ ومثل هذا ماردده كلود فارير حين اعترف بأنه قد أناخت على الإنسانية بعد السبعمائة للميلاد كارثة لعلها أسوأ ماشهدته القرون الوسطى تخبط. من جرائها العالم الغربي سبعة قرون أو ثمانية فى الهمجية قبل أن تظهر النهضة هذه الكارثة هي ذلك النصر الهائل الذى أحرزته فى بدايته جماعات الهركاس المتوحشين يقودها شارل ما رتل على فرق العرب والبربر ، فى مثل هذا اليوم المشئوم تقهقرت الحضارة ثمانمائة سنة ، وحسب المرء أن يذكر ما كان يمكن أن تصل إليه فرنسا ، لو أن الإسلام النشيط. الحكيم الحاذق الرصين المتسامح ـ إذ الإسلام هو كل هذا ـ استطاع أن ينتزع وطننا فرنسا من فظائع لا نجد لها اسما »[1]

٨ ـ ولعل هذا الإتجاد يبدو أشد وضوحا حين تعرض لقصة ليون روش السياسى الفرنسى الذى أقام فى بلاد الإسلام ثلاثين عاما وتعلم اللغة العربية وفنونها وقرأ العلوم الإسلامية وعاشر المسلمين فى الجزائر وتونس ، والأستانة ومصر والحجاز ، ولندع ليون روش نفسه يروى تجربته كما سجلها فى كتابه الصادر ١٩٠٤ بعنوان «ثلاثون عاما فى الإسلام »[2] .

يقول : اعتنقت دين الإسلام زمنا طويلا لأدخل عند الأمير عبد القادر الجزائرى دسيسه من قبل فرنسا وقد نجحت الحيلة ووثق بى الأمير وثوقا تاما

---

(١) ترجمة محمد لطفى جمعة ـ البلاغ الاسبوعى (٤ سبتمبر ١٩٢٩)
(٢) ترجمت (المنار) هذا الفصل ونشرته م ٧ ص ٥٢٠

واتخذنى سكرتيرا له ، فوجدت هذا الدين الذى يعيبه الكثيرون أفضل دين عرفته ، فهو دين إنسانى طبيعى اقتصادى ، أدبى ، ولم أذكر شيئا من قوانيننا الوضعية إلا وجدته فيه «مشروعا» بل انى عدت إلى الشريعة التى يسميها (جول سيمون) الشريعة الطبيعية فوجدتها كأنها أخذت أخذا من الشريعة الإسلامية ثم بحثت فى تأثير هذا الدين فى نفوس المسلمين ، فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وجمالا وكرما ، ثم وجدت هذه النفوس على مثال ما يحلم به الفلاسفة من نفوس الخير والرحمة والمعروف فى عالم لا يعرف الشر واللغو والكذب .

ولقد وجدت فى الإسلام حل المسألتين الإجتماعيتين اللتين تشغلان العالم طرا : (الأولى) فى قول القرآن (إنما المؤمنون إخوة) فهذا أجمل مبادئ الإشتراكية و (الثانى) فرض الزكاة على كل ذى مال وتخويل الفقراء حق أخذها غصبا إذا امتنع الأغنياء عن دفعها طوعا .

إنه دين المحامد والفضائل ، ولو أنه وجد رجالا يعلمونه الناس حق العلم ويفسرونه تمام التفسير لكان المسلمون أرقى العالمين وأسبقهم إلى كل الميادين .

٩ – ويكشف «حقيقة الإسلام» رجل اتصل بأهله قنصلا لبلاده ، فى تقرير رسمى طبع ونشر عام ١٨٧٨ هو السير ريتشارد وود الذى عمل فى دمشق والجزائر يقول فى تقريره[١] : .

إن من أوهام الناس أن الإسلام يمنع مساواة أهل الذمة بالمسلمين فيما لهم

---

(١) ترجمه السيد محب الدين الخطيب وطبعته المطبعة السلفية (القاهرة)

وما عليهم ، وينبو عن الأخذ بأسباب التقدم والحضارة لأنه لا يحبذ انتشار المعارف والتحلي بالعلوم ، وهذه الأوهام باطلة .

إن كثيرا من مؤلفي الإفرنج يزعمون أن المسلمين لا يتسنى لهم التقدم .. والإرتقاء في معارج الحضارة ما داموا مقيدين بنصوص القرآن التي يقولون إنها لا تلائم المعارف واكتساب الفنون ، وهذا وهم نشأ من الجهل بمقاصد القرآن ، ويكفي برهانا على بطلانه تاريخ صدر الاسلام وعناية علماء العرب بالمعارف والفنون ودرسهم كتب الحكماء الأقدمين أمثال أرسطو وأقليدس وأبقراط وبطليموس ...

وأكبر بواعث سوء الفهم هو انتشار الظن في أوربا بان الاسلام دين القوة والسيف ، وهذا الظن مخالف الواقع .

والذي يبحث بحثا دقيقا عن أسباب الفتن التي سفكت فيها الدماءُ في الشرق يعلم أن الباعث الوحيد على حدوثها ، هو أصبع السياسة الأجنبية التي تنتهز الفرص لإيقاد نار الفتنة بين ذوي الأحقاد .

ومن هذا القبيل واقعة الدروز والموارنة وواقعة الصقالبة ، والبلغاريين فقد تبين أن الإعتداء إنما يبتدئ من جانب النصارى (وكان ريتشارد وود قنصلا لدولته في دمشق عام ١٨٦٠ عند حدوث فتنة الدروز والموارنة) .

١٠ ـ فاذا انتقلنا إلى باحث آخر كالدكتور بول دي ركلا نجد صورة جديدة من صور الدفاع عن الإسلام والإعتراف به على نحو منصف مستنير :

«إن لنا أن نعرف ويعرف العالم[1] أجمع جوهر هذا الدين لأن معلوماتنا عنه ليست قليلة فحسب بل هى سيئة جدا ، وأرى من جهة ثانية أننى أكون أسديت إلى قومى الفرنسيين خدمة إذا أوقفتهم على حقيقة دين جاء بمبادئ فيها كل الفوائد لأعمالهم إذا انقادوا للحق واتبعوا أوامره الجليلة ...

دين يجب ألا نكتفى بتسميته دينا بل ونقف لنعطيه اسمه الحقيقى ولنسميه فلسفة دينية فنكون قد أعطيناه مركزه بين الأديان .

ولست بمغال إذا صرحت علنا وقلت ان الاسلام مفتوح بابه على مصراعيه وهو واسع الأرجاء لتلقى الرقى الحديث الذى أنتجته الأجيال الطويلة ، وليس كما يزعم البعض بمحدود الأطراف وضيق المدخل ، لأن تعاليمه الرفيعة وضعت لكرور الدهور ، وستبقى خالدة وضاءة الأنوار تكشف كل مدنية تتمخض عنها العصور .

ويكفيه فخرا أنه لا يقر مطلقا القاعدة الشاملة (لاسلام خارج الكنيسة) التى يتبجح بها كثير من الناس وقد أظهرت لنا الأيام وخيم عاقبتها .

وهو الدين الوحيد الذى حل بعدل مشكلة حقوق البنين ، وواجباتهم باعترافه بالمولود ضاربا عرض الحائط بالترتيب الغريب المخالف لنظام الطبيعة ونواميسها الذى أوجده الدين الكاثوليكى بحق الأولاد .. الشرعيين وغير الشرعيين ، إذ فرق الدين الكاثوليكى بينهم ، فأعطى الأول كل الحقوق وحرم الآخر من كل الحقوق . فعمل كهذا مناف لسنن الطبيعة وجريمة كبرى نقترفها فى حق الأولاد غير الشرعيين .

(١) مجلة العرفان (صيدا ص ١٦٦ م ٢٢ (١٩٣١ - (١٣) .

وإن الاسلام هو الدين الوحيد بين جميع الأديان الذى أوجد بتعاليمه السامية عقبات كثيرة تجاه ميل الشعوب إلى الفسق والفجور ويكفيه فخرا انه قدس الأنساب وعظمها ليرغب الرجل بالزواج ويعرض عن الزنا المحرم شرعا وتشريعا .

وان الإسلام قد حل بعقلية عادلة أغلب المسائل الإجتماعية التى لم تزل للآن تشغل مشرعى الغرب بتعقيداتها .

فالإسلام هو الدين الديمقراطى الوحيد سواء أكان بتعاليمه أم بشرائعه أو بعاداته ، فهو لا يعترف مطلقا بالزعامة الدينية ، وما الرتب والألقاب سوى نعوت شرقية تعطى لبعض الأشخاص الذين لهم مركز بين فى الهيئة الإجتماعية ولا تورث للأعقاب . فالإسلام ، يستحق ولا ريب أن تدرس تعاليمه من قبل عظماء رجالنا الموكول إليهم أمر نشر نفوذنا ومع الأسف قد أساؤا العمل باحتقاره لأنهم يجهلون جوهره الثمين وهم مسوقون الى اتباع خطى أسلافهم فهم مقلدون ليس إلا ....

١٢ ـ ويكشف (إيتان دنيه) عن تعصب قومه ، فى كتابه محمد نبى الإسلام فيقول : لقد مضى عليهم ثلاثة قرون وهم يهاجمون هذا الإسلام بدعوى أنهم يعدونه أساطير ليقيموا على أنقاضها حقائق وهاهم بعد طول العناء لم يعملوا شيئا ،واذا قارنا النظريات الحديثة التى تفنن فيها المستشرقون من فرنسيين وانجليز وألمان وبلجيكيين وهولنديين وعارضنا بعضها ببعض افتضح حينئذ ما انطوت عليه أقوالهم من اختلاط. وتلبيس لأن نظرياتهم مبنية على الباطل ولذلك تولى بعضها تحطيم البعض الاخر .

فالذى يقوله (رنهارت دوزى) فى كتابه (مسلموا الأندلس ١-١٨) من أن محمدا شذ عن قومه العرب بأن له خيالا وأن العرب مجردون من الخيال .. فيكذبه (هنرى لامنس) فى كتابه (مهد الإسلام ص٤-٥) لأنه ينسب فوز الإسلام الى المطابقة بين محمد وبيئته .

ويذهب (دوزى) إلى أن نبى الإسلام كان سوداويا صموتا يميل إلى النزهة الطويلة بينما لامنس يكذب ذلك ويقول إن هذا الزعم لايتفق مع نفرة محمد من الوحدة وكراهيته للنسك .

والذى يقوله نولدكه فى الوحى المحمدى يكذبه دى خويه فى مباحث شرقية (ج١ ص١-٥) ثم يهدم (سبرنجر) هذين الزعمين فى كتابه حياة محمد وعمله (١ : ١٥٧) ويناقضهم (سنوك هرجرونجه) فيذهب فى مجلة تاريخ الأديان (٣٠ : ٥٧) إلى غير ذلك .

ويقول جريميه فى كتابه محمد (ص١٥) ان النظام الإسلامى نظام اشتراكى أكثر منه دينى ، ويرد سنوك هرجر ونجه عليه بأن اشتراكية الإسلام نشأت من شظف جزيرة العرب ، ثم يأتى اليهودى مرجليوث فيزعم أن بداية الإسلام كانت جمعية سرية كالماسونية تأسست فى دار الأرقم وأن «السلام عليكم» شعارها[1] .

وإتيان دينيه مصور فرنسى عاش فى شمال إفريقيا واقتنع بحقيقة الإسلام وقرأ كل ما كتبه المستشرقون عن الإسلام ، ورأى كيف تضاربوا ومن رأيه أن الأب لامنس فى علم المشرقيات كبطرس الناسك فى الحروب الصليبية جهز

---

(١) ص ٢٦٢ م ١٨ (المنار)

بهمة لا تعرف الكلل حملة صلبية دعية فى العلم طمعا فى أن يصرع الإسلام صرعة لا مقام منها .

وأن نفرا من النصارى فى أوربا دانوا بالإسلام فى الأعوام الأخيرة ويكثر عددهم على مر الأيام وأن الكنت هنرى دى كاسترى قال فى كتابه الإسلام (ص٢١١) «أن الاسلام هو الدين الوحيد الذى لامرتدون فيه[١]

١٣ – ويرد درمنجم على لامنس وشيخو فى كتابه (حياة محمد) فيقول ان كتب الأب لامنس قد تموهت محاسنها بما بدا فى تضاعيفها من كراهية الإسلام ورسوله فاستعمل فى التاريخ طرقا بالغ فيها بالنقد ، ومثل لامنس ، شيخو ، فانه لم يأل جهدا فى إثبات دعواه ان العرب قبل الإسلام وبعده لاشأن لهم فى المدنية واذا كان هناك من حضارة فإنه يثبتها لنصارى العرب .

١٤ – ويرد فلكس فالى المستشرق المجرى[٢] اتهام الاسلام بالجمود فيقول ان دعوى كون الاسلام جامدا لا يتحرك دعوى لا دليل عليها ، والحق أن الإسلام كان فى كل عصوره مثالا للحركة الفكرية فى التاريخ وأن التشريع فى الاسلام ليكشف عن خبايا التشريع الرومانى ، وقد أقام الدليل على مرونة الاسلام جولد زيهر فى كتابه دروس فى الإسلام .

إن الإسلام الذى ليس لانتشاره مثل فى تاريخ الإنسانية ليس مبنيا على الاعترافات الدينية .

ومن رأى فليكس فالى أن هذه البعثات التى تذهب الى الشرق ، كانت تصدر حكمها قبل أن تصل الى بلاد اسلامية ، ولهذا كانت آراؤها خطأ لأنهم

(١) أراء غربية فى مسائل شرقية (عمر فاخورى)
(٢) ٩ يناير ١٩٢٣ جريدة الاخبار

لم يعرفوا الإسلام إلا من المسيحيين الوافدين من الشام ، وكل هم هؤلاء أن يستفيدوا من الآراء الجائرة من الأوربيين أو الأمريكيين ضد المسلمين .

* * *

وبعد : فإن هذه النصوص الواضحة الصريحة التى أوردناها لكوكبة من المفكرين والعلماء والباحثين تكشف عن حقيقة ماذهبنا إليه من أن جوهر الإسلام التقى وقوته الذاتية ـ بالرغم من الضباب التى رسمت صورته من خلاله ، وهذه الاتهامات المريرة الذاهبة فى اطواء الحقد والتعصب ـ قد استطاع هذا الجوهر أن يكشف عن نفسه وأن يدل على مفاهيمه الأساسية : .

ولا شك أن هذه الكلمات تعطى الحقائق الآتية :

* ان كتاب الغرب كانوا متعصبين أساسا فى النظر إلى الإسلام ولم يكن لديهم استعداد للانصاف .

* إن فضل المسلمين على الحضارة الغربية أمر لاشك فيه وأن اليونان واللاتين ليسوا هم وحدهم منبع العلوم والآداب .

* اهتمام الغربيين بمقاومة الاسلام مقاومة فعالة ، على حد قول خالد شلدريك من أن الإسلام لوكان لا أهمية له فلماذا هذه الجهود فى التحامل عليه ومقاومته وتوجيه المطاعن إليه .

* الإعتراف بأن موقعة شارل مارتل التى أوقفت تقدم المسلمين فى أوربا هى التى أخرت سير المدنية ثمانية قرون .

* كرامة المسلمين فى فتوحهم واتصالهم بالشعوب وبربرية الغرب فى هذا المضمار .

* تقدير ما فى أصول الإسلام من حلول لمشاكل الإنسانية فى الأخوة والإشتراكية والزكاة .
* بطلان الإدعاء بأن القرآن مقيد لطريق الإرتقاء والإدعاء بأن الإسلام انتشر بالسيف .
* ليس الإسلام دينا فقط. ولكنه دين وحضارة ومجتمع .. وانه دين المستقبل وستبقى تعاليمه خالدة وضاءة الأنوار .
* حل الاسلام بعقلية عادلة أغلب المسائل الإجتماعية التى لم تزل للآن تشغل مشرعى الغرب .
* اضطراب المستشرقين فى آرائهم وبعدهم عن روح البحث العلمى وتعارض آرائهم مما يوحى بأنها مبنية على الباطل .
* الإسلام هو الدين الوحيد الذى لا مرتدون فيه . .
* لم يكن الإسلام جامدا وإنما كان مثالا للحركة الدائمة .
* البعثات التى كانت تبحث عن الاسلام لم تكن تتصل بمصادره الأساسية. بل تعتمد على بعض خصومه وعملاء الإستعمار .

(٤)

ضوء جديد من الإسلام



(١)

أصول الإسلام



١

أصول الاسلام

لطالما ردد كتاب الغرب الآراء حول تعصب الاسلام واضطرابه وامتلائه بالأساطير والخرافات . ولم يكن هذا هو الحق ، لأن أصحابه لم يصلوا اليه عن طريق دراسة منصفة . وإنما على سبيل الاتهام والتعصب .

١ – ومن عجب أن رينان الذى هاجم الاسلام فى كثير من مولفاته يعود فى كتابه (تعليقاتى على تاريخ الأديان) فيواجه هذه المسائل بروح علمية . يقول رينان[١] :

إن بعض الأديان قد أسستها أيدى النساء ، ولكن الاسلام الذى قام على سواعد رجال أولى عزم كمحمد ، يعرف فيه كل منصف أنه قدسى الأهداف ، بل هو دين الحزم والجد ، دين البساطة والمساواة والعدالة والحرية .

لم ينصف الغربيون الاسلام باتهامهم إياه بقساوة الجهاد والفتوحات مع أن هذا الجهاد كان ضروريا لنشر العدالة التى تزدان بها التعاليم الاسلامية المشرقة .

ونضرب مثلا على ذلك بإيراد السؤال الآتى لعلمائنا المؤرخين كالكونت كرادون الذى اتهم الاسلام بالتعصب وحدة الجهاد وحجب المرأة فيقول :

---

(١) نقلا عن كتـــاب الديانات والحضارات (طه المدور – بيروت ١٩٥٦) .

ترى كيف ولماذا قلب نصارى سوريا ظهر المجن لأباطرة الرومان المسيحيين والتجأوا إلى حمى أبي عبيدة بن الجراح المسلم وعاونوه فى الجهاد لطرد الرومانيين من الديار السورية ذلك بأنهم تذوقوا العدالة التي جاء بها الاسلام وفضلوها بالطبع على الجور الذى كانوا يلاقونه ويعانونه من أبناء دينهم الرومانيين .

وفى الرد على فلسفة كانت أقول إنه ليس فى الاسلام أساطير ولا خرافات فالمجهود العلمى والمنطقى بارزان فى معظم التقاليد الاسلامية فاذا درست مذاهب الإسلام الأربعة (الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية) لاتجد غير دساتير خلقية متينة ، ومشاعر روحية سامية وقواعد تعبدية منسجمة ، ترمى بالنتيجة إلى تحرير الحق من كل باطل .

وما البروتستانتية التى نشر الاصلاحيون (لوثر وأنصاره) المجددون لواءها فى أواخر القرون الوسطى بأوربا الا صورة لتقاليد البساطة الاسلامية سواء فى طقوس العبادة أو فى استئصال الزخرفة المقتبسة من أساطير الاغريق ، ولا يحق لأوربا أن تلجأ الى طبع الأديان غير المسيحية بطابع حضارتها وأن توسعها طعنا وتزييفا ، اذ أن لكل دين وجهة دنيوية بجانب وجهته الدينية .

٢ ـ ويرى القس إسحاق بتلر رئيس الكنيسة الانجليزية(١) «أن الاسلام ينشر المدنية التى تعلم الانسان ما لا يعلم ، والتى تقول بالاحتشام فى الملبس ، وتأمر بالنظافة والاستقامة ، فمنافع الاسلام لا ريب فيها وفوائده من أعظم أركان المدنية ومبانيها .

(١) المنار ـ م ٣ ـ ١٩٠٢

(حقوق المرأة)

٣ – ويدافع واصف بطرس غالى[١] عن مقاصد الاسلام فى رسالته (البطولة عند العرب) ويرد على كل ما يثار فى هذا الصدد من اتهامات ، «يقولون أن الاسلام قد حط من قدر المرأة وجهلوا أن محمدا صلى الله عليه وسلم بذل أقصى الجهد فى تحريرها ، وضمان مصالحها ، وتحسين مركزها المادى والأدبى ، وما على المتشككين إلا أن يرجعوا إلى تعاليم النبى ليعرفوا كيف رفع المرأة الى المكان اللائق بها ، وكيف كانت تعاليمه وفاقا لحاجة الناس والتطبيق الدقيق لأحكام القرآن ونصوصه تكفل للمرأة المسلمة الحديثة التمتع بالحقوق المدنية التى يمكن فى دائرة المعقول التى نصبوا اليها .

٤ – ويصف ولز الاسلام[٢] بأنه « مملوء بروح الرفق والسماحة والأخوة وأنه عقيدة سهلة يسيرة الفهم وأن محمدا عليه السلام قد أوصل مبادئ الاسلام الجذابة الى سويداء قلوب البشرية دون أى فرية مبهمة ودون أن يقيم للهياكل أى أهمية ، ولقد أدخل الاسلام فى أعمال الخلق أوسع فكرة سياسية وأحيا فكرة سياسية عرفها البشر ومد إلى البشرية يد المعونة .

---

(١) فى كتابه (البطولة عند العرب) منقولة من جريدة الاخبار ٢٠ مارس ١٩٢٣

(٢) كتاب معالم تاريخ الانسانية لولز .

(الزكاة)

٥ – ويتعرض ما سينون فى كتاب «وجهة الاسلام» للزكاة باعتبارها نظاما اقتصاديا دقيقا فيقول :

للإسلام الفضل فى أنه يمثل لنا فكرة عادلة عما يقوم به كل فرد من أبناء الوطن بدفع عشر ربع الأرض للخزانة العامة .. إنه يشن الغارة على المبادلة المطلقة ورأسمالية المصارف وقروض الدولة والضرائب غير المباشرة على الأشياء ذات الأهمية الجوهرية . ويقف وسطا بين الرأسمالية والبورجوازية والشيوعية والبولشفية .

٦ – ويصور (كارليل[1]) طبيعة الاسلام : وكيف يرمى « بطريقته الخاصة إلى إنكار الذات وقمع النفس » . ويقول : هذه هى أسمى حكمة كشفتها السماء لعالمنا الأرضى ، وإنى لأجد فى محمد وفى قرآنه الصدق والإخلاص والتحرر الكامل من الزيغ والضلال قبل كل شئ وقد ظل دينه طيلة هذه القرون الأثنى عشر مرشدا لخمس الجنس البشرى ، وظل قبل كل شئ موضع إيمان قلبى عميق ، لقد كان العرب شعبا ضيق الأفق ، فبعث اليهم بنبى بطل ، فلم ينقض قرن حتى كان العرب قد وصلوا إلى غرناطة من ناحية وإلى دلهى من ناحية أخرى .

٧ – اما (هـ . ج . ولز) فى كتابه «مختصر تاريخ العالم فيرسم صورة أخرى على هذا النحو .

---

(١) – (ك) الابطال وعبادة الابطال : ترجمة (محمد بدر الدين خليل)

«هؤلاء البدو انبثوا فجأة وبلغوا فى قرن قصير غاية الرفاهية ، فلقد نشروا حكمهم ولغتهم ما بين أسبانيا وبلاد الصين ، ولقد أمدوا العالم بثقافة جديدة ، ونشروا دينا لا يزال حتى اليوم قوة من أهم القوى الحيوية فى هذه الدنيا . إن فى ذلك الدين الذى نشره محمد فى العرب كثير من أسباب القوى والوحى .

ومن أبرز خصائصه الوحدانيـــة المطلقة التى لا تعرف هوادة ، وعقيدته السهلة المتحمسة فى الله وحكمه ، وخلوه من التعقيد المذهبى ، والتحرر المطلق من الرهبة والمعبد ، وثم عنصر هام من عناصر القود فى الاسلام ، وذلك تأكيده الإخاء والمساواة بين المسلمين أمام الله مهما تكن ألوانهم وأجناسهم وأوضاعهم.

٨ ــ أما (جب) فى (وجهة الاسلام[1] فيقول :

لا يزال الاسلام فى العالم العربى يسلك سبيلا وسطا بين المتناقضات .. الشديدة ، وهو على معارضته لفوضى القومية الأوربية وللنظام العسكرى لروسيا الشيوعية لم يقع بعد فريسة للهجمات الاقتصادية الملحة التى تمتاز بها أوربا وآسيا .

٩ ــ أما (تريتون) فى كتابه (الاسلام عقيدته «٢» وعباداته) فيعرض لجانب آخر هو «الوحدة» التى تجمع بين المسلمين فى طابع واحد .

يقول : إذا صح فى العقول أن التفسير المادى للتاريخ يمكن أن يكون صالحا فى تعليل بعض معظم الظواهر التاريخيـــة الكبرى ، وبيان أسباب قيام

(١) ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريدة ــ طبعة ١٩٣٣ القاهرة
(٢) ملخص للكتاب فى مجلة الثقافة م ١٩٥١

الدول وسقوطها فإن هذا التفسير يفشل فشلا ذريعا حين يرغب فى أن يعلل وحده المسلمين وغلبتهم على غيرهم وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم ، وثبات أقدامهم ، فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا فى العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة ، فرأوا أنها تقع فى هذا الشئ الجديد : ألا وهو « الإسلام » .

رأوا أن الإسلام قوة هائلة ، فيه حيوية دافقة ، وديناميكية حية وهو مفتوح على العمران وسبيل الحضارة ، وهو الطريق إلى جمع الكلمة ونشر السلام وتحقيق العدل بما يؤلف بين القلوب ويربط بين الشعوب .

١٠ ـ وعارض واصف بطرس غالى[١] « دعوى القدرية التى وجهت للإسلام : فقال : « يزعمون الإسلام لايشجع على بذل الجهد لأن هناك كلمة تقول (إن كل شئ مكتوب) والحقيقة فى ذلك أن التسليم للقضاء والقدر فى الديانة الاسلامية ليس معناه الجمود ولا حبس الجهد فهو لا ينكر العمل ولا يقف فى سبيل التطور .

(شعور العزة)

١١ ـ ويلخص (ولفرد كابتول سميث)[٢] عظمة الإسلام فى شعور العزة الذى يملأ نفوس معتنقيه فيقول :

« ما من دين استطاع أن يوحى إلى المتدين به شعورا بالعزة كالشعور الذى يخامر المسلم من غير تكلف ولا اصطناع ، وأن اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة ، وكون الإنسان مسلما باعث من بواعث الحمد

---

(١) كتابه « البطولة عند العرب » وبالفرنسية .

(٢) كتابه (الاسلام فى التاريخ الحديث) المترجم فى سلسلة كتب سياسية

تسمعه من جميع المسلمين ، وأن الغربى لا يفهم الإسلام حق فهمة إلا إذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهرا وباطنا ، وليس مجرد أفكار أو عقائد يناقشها بفكره » ..

١٢ – وقال وليم كاش إن الإسلام هو الدين المختار ، فكثير من الرسل الذين عرفوا منذ القدم جاء ذكرهم فى القرآن تحوطهم الجلالة والتقديس ، بل لعيسى ابن مريم بين هؤلاء الرسل مكانة خاصة فقد جاء ذكره فى السورة الرابعة : رسول الله يحمل كلمته ويستمد الروح من عنده .. (إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) .

١٣ – ويرى المستشرق (وامبرى) أن روح نظام المسلمين هو الدين والذى أحياهم هو الدين والذى يكفل سلامتهم فى المستقبل هو الدين ليس غير .

١٤ – ويرى إدوار مونته أن روح الإسلام صعب على الغريب عنها أن يقف على سرها .

١٥ – ويرى (إنشتين) أن عظمة الإسلام تتركز فى عوامل ثلاث : أنه أحدث الأديان وأنه لم يخاصم العلم وأنه يستطيع أن يعالج أزمات العالم الحاضر .

الاسلام والسيف

كان الاتهام الذى وجهه كتاب الغرب إلى الاسلام أنه انتشر بالسيف وأنه ما كان من المستطاع أن يتوسع فى هذا الزمن القصير ويقيم هذه الامبراطورية الضخمة لولا السيف .

وقد واجه الكتاب الغربيون هذا الاتهام وفندوه .

١ ـ يقول ويفالنج لنجرميش(١) .

لم يحدث فى التاريخ أن انتشر دين بهذه السرعة ، واعتقد الغرب أن توسع الاسلام ما كان يمكن أن يتم لو لم يعمد المسلمون إلى السيف ، ولكن الباحثين لم يقبلوا هذا الرأى . فالقرآن صريح فى تأييده لحرية العقيدة ، والدليل قوى على أن الاسلام رحب بشعوب مختلف الأديان ، ما دام أهلها يحسنون المعاملة ويدفعون الجزية .

ولا شك أن حروبا قد نشبت بين المسلمين وغيرهم من النصارى واليهود وفى بعض الأحيان كان سبب ذلك أن أهل الديانات الأخرى أصروا على القتال ، وفى القرآن آيات تصور العنف الذى استخدم فى هذه الحروب ، ولكن الرهبان قطعوا بأن أهل الكتاب كانوا يعاملون معاملة طيبة وكانوا أحرارا فى عباداتهم . .

---

(١) مجلة المختار ــ فبراير ١٩٥٦ .

٢ ـ ويقول السير ريتشارد وود فى تقريره : إن من أكبر بواعث سوء التفاهم بين أوربا والاسلام هو انتشار الظن فى أوربا بأن الاسلام دين القوة والسيف ، ولكن هذا الظن مخالف للواقع لما جاء فى القرآن (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا . . . الآية) .

٣ ـ أما ريفونويت فى كتابه « اعتذار إلى محمد والاسلام »[١] فيقول إنه من الحماقة أن نظن أن الاسلام قام بحد السيف وحده ، لأن هذا الدين الذى يهدى للتى هى أقوم يحرم سفك الدماء ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

٤ ـ ويتحدث غاندى عن تسامح الاسلام وينكر أكذوبة السيف يقول : لم يكن الاسلام فى إبان مجده عديم التسامح فقد أحرز إعجاب العالم كله ، ولما كان الغرب غارقا فى الظلمات أشرق نجم فى سماء المشرق وأضاء عالما متألما ومنحه التعزية . ليس الاسلام دينا باطلا فليدرسه الهندوس باحترام ويحبوه كما أحبه أنا ، وقد غدوت مقتنعا كل الاقتناع أنه ليس السيف هو الذى جعل للاسلام مكانة فى معترك الحياة بل إن بساطة النبى التامة وإنكاره الكلى لذاته واحترامه الدقيق لعهوده وإخلاصه الشديد لأصدقائه وأتباعه وشجاعته وبسالته وثقته الكاملة بالله . ورسالته هذه ـ لا السيف ـ هى التى جرفت كل شىء أمام المسلمين الأولين .

٥ ـ ويتحدث واصف بطرس غالى فى كتابه (البطولة عند العرب) عن تسامح الاسلام : .

---

(١) م ١٣ جـ ص ٧٠٥ المنار

فيقول : إن هناك الأمثلة العديدة التى تدل على روح التسامح عند المسلمين سواء فى علاقاتهم مع غير المؤمن أو مع إخوانهم فى الدين ، فلاسفة كانوا أو شيعيين ، إباحيين كانوا أو ملحدين ، فإنا نسجل هنا شهادة رينان الذى لا يستطيع أحد أن يتهمه بالعطف على الاسلام قال : إن حب العلم والكمال قد حقق فى القرن العاشر ، فى تلك البقعة الممتازة من العالم (الأندلس) تسامحا ليس فى وسع العصور المدنية أن يوجد ما هو أعظم منه ، فان المسيحيين واليهود والمسلمين كانوا يتعلمون لغة واحدة ويتغنون بأغان شعرية واحدة ، ويدرسون معا دروسا واحدة فى الآداب والعلوم ، ولقد سقطت جميع الحواجز التى تفصل الناس بعضهم عن بعض فكانوا جميعا متضامنين فى العمل على خير المدنية المشترك وأصبح جامع قرطبة حيث كان طلبة العلم يعدون بالألوف مركزا حيا للدروس الفلسفية والعلمية .

معاملة أهل الكتاب

إتهم الكتاب الغربيون الاسلام بأنه أساء معاملة أهل الكتاب .. والحقيقة أنه ليس غير الاسلام من أنصف أهل الكتاب وأحسن معاملتهم ..

١ – دافع عن هذه النظرية السير ريشارد وود قنصل انجلترا فى خطابه السرى الأزرق ١٨٧٨ يقول : من أوهام الناس أن الاسلام يمنع مساواة أهل الذمة بالمسلمين فيما لهم وما عليهم ومعلوم أن أهل الذمة لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم إذا ثبت أن غايتهم الوطنية موافقة لغاية المسلمين وأنهم مثلهم فى إيثار مصالح الوطن والخير العام .

وقد نص القرافى وابن حزم على أن لهم حق الحماية إذا دخل الحربيون البلاد . يقول القرافى ما معناه « إن من واجب المسلمين للذميين الرفق بضعفائهم وسد خلة فقرائهم وإطعام جائعهم وإلباس عاريهم ومخاطبتهم بلين القول واحتمال أذى الجار منهم مع القدرة على الدفع وإخلاص النصح لهم فى جميع أمورهم » .

ولا يخفى على المتأمل فى هذه الفتوى أنها تنتج أمرين مهمين :

الأول : أن الاسلام يجيز استشارة أهل الذمة فيما يتعلق بالنظامات الدنيوية وإلا لما كان يجيز للامام أن يستعين برأيهم ويعمل بمشورتهم ويقبل مفاوضتهم فى نوازل المسلمين .

الثانى : أن الاسلام لا يمنع من استخدام النصارى واليهود أكثر مما يقتضى الحال وتستلزمه الضرورة الوقتية .

وصاحب الشريعة الاسلامية قد ميز بين أهل الكتاب وهم النصارى .. واليهود وبين المشركين من العرب .

وقد وقع بين الخليفة الثانى عمر بن الخطاب وبين بطريق بيت المقدس اتفاق يتضمن حرية النصارى ومنحهم امتيازات وفى بها » ...

٢ ـ وقد تناول الكثيرون موقف المسلمين فى العصر الحديث من الأقليات على نحو يكشف عن حقيقة موقف الاسلام ومصدر الفتنة الحقيقى فى مختلف المؤامرات التى وقعت فالكابتن غوردون كانتج[١] يقول عن الأقليات المسيحية واليهودية أنها كانت تعامل على الدوام خير معاملة فى البلدان الاسلامية ، إلى أن تأتى دولة أوربية وتستخدم تلك الأقليات لقلب الحالة كما حدث فى مسألة الأرمن والأتراك ، إن زعماء العرب فى هذا العصر وفى العصور السابقة كانوا دائما يعملون على تلافى هذا التنافر وإصلاح ذات البين فإذا كان التعصب قد أخذ مجراه فى زمن من الأزمنة فقد كان المسلمون على مذهب الحاكم ينالهم من الاضطهاد ما ينال المسيحيين ، ومن الواجب أن تتخذ مبادئ نجران كالمثل الأعلى للزعيم المسلم «إن دم الذمى كدم المسلم» .

٣ ـ ويشير السير ريتشارد وود قنصل انجلترا فى دمشق إبان وقوع المجازر بين الموارنة والدروز ، فى تقريره الذى رفعه إلى دولته ١٨٧٨ فيقول :

---

(١) الاهرام ـ ٢٨ اكتوبر ١٩٢٩

«والذى يبحث بحثا دقيقا فى أسباب الفتن التى سفكت فيها الدماء فى المشرق يعلم أن الباعث الوحيد على حدوثها هو إصبع السياسية الأجنبية التى تنتهز الفرص لإيقاد نار الفتنة بين ذوى الأحقاد . ومن هذا القبيل واقعة (الدروز والموارنة) وواقعة الصقالبة والبلغاريين ، فقد تبين أن الاعتداء إنما يبتدئ من جانب النصارى » ..

(لا إكراه)

٤ - ومن ناحية أخرى يشير المؤرخ الانجليزى أرنولد توينبى إلى انتفاء صفة الاكراه فى الدعوه الاسلامية فيقول[1] .

« من الميسور أن نسقط الدعوى التى شاعت بين جوانب العالم المسيحى غلوا فى تجسيم أثر الإكراه فى الدعوة الاسلامية ، إذ لم يكن التخيير ببلاد الروم والفرس بين الاسلام والسيف ، وإنما كان تخييرا بين الاسلام والجزية وهى الخطة التى استحقت الثناء لاستنارتها » ....

٥ - وقد شهد الدكتور تريتون فى كتابه «الاسلام معتقداته وطقوسه» بأن الاسلام ينظر إلى أتباع الأديان الأخرى نظرة تسامح ورفق ، وفى العصور الوسطى كان اليهود سعداء بالعيش بين المسلمين أكثر مما كانوا بين المسيحيين

(٢) نقلا عن العقاد فى كتابه ما يقال عن الاسلام ص ٢٧

الاسلام دين ومجتمع

كان كتاب أوربا يقيسون أمور المسيحية على الإسلام ، ويحاولون تطبيق ما وقع بالنسبة للمسيحية مع الفكر الغربى والحضارة الغربية على الاسلام ، غير ناظرين ، تحت ضغط الضباب الكثيف المثار فى وجه الاسلام ، من أن الاسلام دين ومجتمع ..

غير أن بعض كتاب الغرب المنصفين تنبهوا فعلا إلى هذه الحقيقة من أن الاسلام ليس دينا فقط ، ولكنه دين ومجتمع وحضارة .

١ ـ يقول سير موريسون «إن الحق الذى لايمارى فيه أحد ، أن الاسلام أكثر من معتقد ودين ، إنما هو نظام اجتماعى تام الجهاز ، هو حضارة كاملة النسيج لها فلسفتها وتهذيبها وفنونها ، وقد انقضى ما انقضى من العهد الذى ما برح فيه الاسلام والنصرانية على نضال ونزاع فما وهن جانب من جوانب الاسلام قط ، بل ما انفك على الدوام يشد بعضه بعضا متماسكا متعاضدا .

٢ ـ أما جورج سارتون (جامعة هارفارد) فى كتابه الشرق الأوسط فى مؤلفات الأمريكيين فيقرر أن الاسلام من أصح النظم الدينية والاجتماعية وأجملها ، ويقول «وهو عندنا أصح تلك النظم على الاطلاق» ...

التشريع الاسلامى

ما أظن أن جانبا من جوانب الاسلام لقى من عنت الاتهام كما لقى التشريع الاسلامى ، ذلك أن الغرب كان يحرص على أن يثير حول الشريعة الاسلامية ضبابا كثيفا . وقد حاول (دافيد سانتيلانا[1]) أن يقول ان المشرع ـ الاسلامى وجد التشريع الرومانى سائدا فى الشام ومصر وافريقية الى مراكش فنسخ منه ما نسخ ، أو قول هنرى ما سه فى كتابه الاسلام المطبوع فى باريس ١٩٣٠ حيث ادعى أن الفقه الاسلامى لم ينشأ عند العرب بمحض تفكيرهم الخاص من غير تأثير خارجى فيهم أو قول جولد زين المستشرق النمساوى فى كتابه عقيدة الاسلام وقانونه) .

المترجم إلى الفرنسية ١٩٢٠ من أن هناك تشابها وتماثلا بين الحقوق ـ الاسلامية والحقوق الرومانية .

وقد انبرى من أعلام الفكر الغربى المنصفين من كذب هذه الاتهامات واعترف بأن التشريع الاسلامى مستقل استقلالا كاملا ولا شبة عليه ، فى الارتباط ـ بالقانون الرومانى .

١ ـ ويعترف العلامة «شيريل» عميد كلية الحقوق بجامعة فينا ـ (الكاثوليكى المذهب) بفضل الشريعة الاسلامية ، فنى كلمة أمام مؤتمر الحقوقيين عام ١٩٢٧ قال بالنص :

---

(١) مقدمته على مشروع القانون المدنى والتجارى التونسى ١٨٩٠ تونس

«ان البشرية لتفخر بانتساب رجل كمحمد اليها إذ أنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرنا أن يأتى بتشريع سنكون نحن الأوربيين أسعد ما نكون لو وصلنا الى قمته بعد ألفى عام .

٢ ـ وفى مؤتمر عام ١٩٥١ (شعبة الحقوق الشرقية فى المجمع الدولى للقانون المقارن) المعقود فى كلية الحقوق فى باريس وضع المؤتمرون قرارا جاء فية :

«أثبتت الأبحاث بجلاء أن الفقه الاسلامى يقوم على مبادى ذات قيمة أكيدة لا مرية فى نفعها ، وأن اختلاف المذاهب الفقهية فى هذا الجهاز التشريعى الضخم ينطوى على ثروة من الآراء الفقهية وعلى ـ مجموعة من الأصول الفنية البديعة التى تتيح لهذا الفقه أن يستجيب بمرونته لجميع مطالب الحياة الحديثه » .

٣ ـ وأصدر مؤتمر القانون الدولى المقارن فى لاهاى (أغسطس ١٩٣٧) قرارا هو :

«أن الشريعة الاسلامية حية صالحة للتطور ومسايرة المدنية الحديثة وأنها لذلك جديرة بأن تشغل مكانة ممتازة بين مصادر القانون المقارن» .

٤ ـ وقال المستشرق المجرى فمبرى :

إن فقهكم واسع جدا إلى درجة أننى أقضى العجب كلما فكرت فى أنكم لم تستنطبوا منه الأنظمة والأحكام الموافقة لبلادكم وزمانكم .

٥ ـ وقال كتشنر القائد البريطانى للقوات البريطانية فى الشرق الأوسط. إبان الحرب العالمية الأولى :

«إن[1] الدولة العثمانية لا تصلح بالقوانين التى تقتبسها منا معشر الأوربيين - حيث لم تصلح لنا هذه القوانين الا بعد تربية تدريجية فى عدة قرون ، كنا نغير منها ونبدل بحسب إختلاف الأحوال ، وأن عندكم شريعة عادلة موافقة لعقائدكم ولأحوالكم الاجتماعية ، فالواجب على الدولة أن تعمل بها وتترك قوانين أوربا فتقيم العدل وتحفظ الأمن ، وعندى أنها لا تصلح بغير هذا .

٦ - وقال فيلسوف المانيا جوته :

أية شريعة لم تتمكن من أن تعلو فوق شرع محمد ، وأن التشريع فى الغرب ناقص على الرغم من تقدمه ، ناقص بالنسبة للتعاليم الاسلامية وإننا أهل أوربا بجميع مفاهيمنا لم نصل بعد الى ما وصل اليه محمد وسوف لا يتقدم عليه أحد[2] .

٧ - وقال ليفى أولمان : (حقوق باريس) .

إن الشريعة الاسلامية فى المعاملات مصدر حى للقانون العصرى ومناط للحق .

٨ - وقال العلامة «سانيتلانا» فى كتابه الفقه الاسلامى المطبوع فى تونس ١٨٩٩ إن فى الفقه الاسلامى ما يكفى المسلمين فى تشريعهم المدنى ، إن لم نقل إن فيه ما يكفى الانسانية كلها .

٩ - ويقول العلامة كيهلر (العالم القانونى الألمانى) بعد أن قرأ بحثا

---

(١) المنار م ١٧ ص ٧٧

(٢) العرفان ص ١٢٥ م ٣٧ (١٩٥٠)

للدكتور محمود فتحي عن مذهب الاعتساف فى استعمال الحق عند فقهاء الاسلام :

«إن الألمان كانوا يتيهون عجبا على غيرهم فى ابتكار نظرية الاعتساف فى القانون المدنى الألمانى الذى وضع سنة ١٧٨٧م ، أما وقد ظهر كتاب الدكتور فتحي وأفاض فى شرح هذا المبدأ عند رجال التشريع الاسلامى وأبان أن رجال الفقه الاسلامى تكلموا طويلا إبتداء من القرن الثامن الميلادى فانه يجدر بالعالم القانونى الألمانى أن يترك مجد العمل بهذا المبدأ لأهله الذين عرفوه قبل أن يعرفه الألمان بعشرة قرون وأهله هم حملة الشريعة الاسلامية .

١٠ – أما هوكنج الأمريكى ، أستاذ الفلسفة فى جامعة هارفارد فى كتابه روح السياسة العالمية[1] فقد صور مشاعره تجاه الثقافة الاسلامية . . . إذاء الشريعة الاسلامية فقال :

إن سبيل تقدم الممالك الاسلامية ليس فى اتحاد الأساليب الغربية التى تدعى أن الدين ليس له أن يقول شيئا عن حياة الفرد اليومية وعن القانون والنظم السارية وإنما يجب أن يجد المرء فى الدين مصدرا للنمو والتقدم .

وأحيانا يتساءل البعض عما اذا كان نظام الاسلام يستطيع توليد أفكار جديدة وإصدار أحكام مستقلة تتفق مع ما تتطلبه الحياة العصرية . والجواب : هو أن فى نظام الاسلام كل استعداد داخلى للنمو ، بل إنه من حيث قابليته للتطور يفضل كثيرا من النظم المماثلة . وعندى أن الصعوبة لم تكن فى انعدام وسائل النمو والنهضة فى الشريعة الاسلامية وإنما فى انعدام الميل الى استخدامها

(١) الكتاب طبع فى أمريكا عام ١٩٣٢

وإننى أقرر أن الشريعة الاسلامية تحتوى بوفرة على جميع المبادئ اللازمة لنهضتها .

١١ – ويقول كارليل فى كتابه (الأبطال وعبادة الأبطال) .

إن فى الاسلام خلة أراها من أشرف الخلال وأجلها وهى التسوية بين الناس ، وهذا يدل على صدق النظر وصواب الرأى فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الارض ، والناس فى الاسلام سواء ، والاسلام لا يكتفى بجعل الصدقة سنّة محبوبة بل يجعلها فرضا حتما على كل مسلم ، وقاعدة من قواعد الاسلام .

ثم يقررها بالنسبة الى ثروة الرجل فتكون جزءا من أربعين من الثروة تعطى إلى الفقراء والمساكين والمنكوبين .

١٢ – ويقول الدكتور انسباتو الايطالى فى كتابه (الاسلام وسياسة الحلفاء) المطبوع ١٩١٩ :

إن الكرم العلمى والصدق الفكرى صفتان من صفات الاسلام شأنهما أن يجعلا الأمة العاملة بهذا الدين أهلا لأن تبلغ من الحضارة ذروتها العليا ، ولما كان أمين الريحانى فى السفينة الشراعية على ساحل جزيرة العرب قاصدا ساحل الاحساء أثقل الهواء جفنه فنام قليلا ثم أيقظه صوت الملاحين وهم اذ ذاك يشتغلون فى قلب الشراع طوعا للمريح ويرددون (لا اله الا الله) فقال الريحانى فى كتاب ملوك العرب : وربك أيها القارئ ما سمعت فى أنغام الليل فى الماء أطرب من صوت المؤذن فى الخليج وهو يؤذن الفجر ، ليس فى صلوات الأمم كلها أدعى الى الورع والخشوع وليس هناك أجمل وقعا فى النفس من صلاة الملاح فى ظل الشراع .

١٣ ـ وقالت مسز ساروجيني نايدو الشاعرة الهندية : لقد دعا الإسلام قبل اليوم بثلاثة عشر قرنا الى المساواة والأخوة ، وقد أسس الاسلام أول جمهورية كان القانون الالهى رائدها والفقير والغنى فيها سواء ولاشك مطلقا أنه سيأتى يوم يبتلع فيه الاسلام جميع الأديان .

١٤ ـ وقال شيلى شميل :

إن فى القرآن أحوالا إجتماعية عامة حتى فى أمر النساء، فانه كلفهن بأن يكن مقصورات عن الريب والفواحش ، وأوجب على الرجل أن يتزوج .. بواحدة عند عدم إمكان العدل ، وقد فتح القرآن أمام البشر أبواب العمل للدنيا والآخرة ولترقية الروح والجسد ، بعد أن أوصد غيره من الأديان تلك الأبواب فقصر وظيفة البشرية على الزهد والتخلى عن العالم الفانى .

١٥ ـ ويقول[١] الفيلسوف فاند نبرغ الألمانى :

لقد وضع للرقيق فى الاسلام قواعد كثيرة تدل على ما انطوى عليه الاسلام من الشعور الانسانى النبيل، ففيها نجد من محامد الاسلام ما يناقض كل المناقضة الأساليب التى كانت تتخذها إلى عهد قريب شعوب تدعى أنها تمشى فى طليعة الحضارة .

١٦ ـ ويقول (هولتزندرون وريفى) الألمانى .

انه يوجد فى الفقه الاسلامى جميع القواعد الجوهرية التى تتعلق بشريعة الحرب ولم تقتصر على الفتح والغنيمة بل تجاوزتها إلى فرض الضرائب وذكر المواد المحرمة على التجارة ونظائرها مما لا يختلف فى الاسم عما يستعمل فى يوم الناس هذا .

---

(١) الرسالة م ١٩٤٦ ص ١٣٣٣

٣
تاريخ الاسلام

كانت حملات كتاب الغرب على تاريخ الاسلام موصومة بالاتهام مليئة بالتعصب ، حريصة على أن تشوه هذه الصور النقية الواضحة من القوة – والبطولة والعدالة التى يتسم بها تاريخ الاسلام كله .

١ – ولكن نيتشة مثلا يتنبه الى هذا المعنى حين يقول :

لقد حرمتنا المسيحية من ميراث العبقرية القديمة ثم حرمتنا بعد ذلك من الاسلام ، فقد ديست بالاقدام تلك المدنية العظيمة ، مدنية الأندلس المغربية ، لماذا ؟ لأنها نشأت من أصول رفيعة ، من غرائز شريفة ، من غرائز رجال تلك المدنية التى لم تنكر الحياة ، بل أجابتها بالايجاب وفتحت لها صدرها .

٢ – ويصور مكود فارير (استاذ اللغات الشرقية) بالكوليج دى فرانس توقف الحضارة الاسلامية يقول : فى عام ٧٣٢ حدثت فاجعة ربما كانت من أشأم الفجائع التى انقضت على الانسانية فى القرون الوسطى وكان أن غمرت العالم الغربى مدة سبعة أو ثمانية قرون ، هذه هى معركة بواتيه برابرة المحاربين من الافرنج بقيادة : شارل ما رتل .

ويكفى أن نطوف فى حدائق الأندلس فى أشبيلية وغرناطة وقرطبة وطليطلة ، لنرى ماذا عساها أن تكون بلادنا الفرنسية لو انقذها الاسلام العمرانى الفلسفى المتسامح .

٣ ـ أما هنرى بيرين فيتحدث فى كتابه (محمد وشرلمان) عن أثر الإسلام فى التاريخ الأوربى ،وعنده أن الاسلام كان هو القوة الهائلة التى حولت مجرى التاريخ الأوربى حتى ليمكن أن يقال إن العصر الوسيط. والنهضة الحديثة هما ثمرتان من ثمرات ظهور الاسلام .

ونقطة التحول فى التاريخ الأوربى هى التى سقطت عندها الامبراطورية الرومانية ، فما هى القوة التى أدت الى ذلك ؟

أجمع أغلب المؤرخين على أن الشعوب الجرمانية التى كانت تعيش على تخوم الأمبراطورية الشمالية هى التى اجتاحت حدود الرومان ، وقضت على دولتهم ، ويرى هنرى بيرين أن هذه الشعوب كانت من هوان الشأن وضيق الحياة الى درجة تجعلها تنظر الى الرومان نظرة العبد الى السادة فما كان يخطر لها بل وما كانت ترغب أبدا فى أن تناوئ روما وتقضى عليها .

أما المسلمون فكانوا يعتقدون أنهم أرقى وأسمى من اليونان فى جميع أسباب الحياة ولا سيما من الناحية الدينية التى كانت مبعث مؤنهم ومصدر تشريعهم فلم يحجموا عن منازلة الرومان ليقضوا على سطوتهم وسيادتهم .

ويرى بيرين : أن المسلمين كانوا أحق بسيادة العالم ، وكانوا يرون أنفسهم جديرون بأن يقدموا للانسانية دنيا جديدة ترشدهم الى مدنية أخرى وقد ظلت الدولة الرومانية قائمة وظلت حضارتها باقية بعد أن اجتاز الجرمان حدودها وانتقل مركزها من روما الى بيزنطة ، فلم تكد تهب ريح الاسلام وتسير كتائبه الى أرض الرومان حتى تلاشى كل ما كان لها من الآثار وقامت فى العالم دولة جديدة ، وظهرت حضارة جديدة حاصرت أوربا من الشرق والجنوب .

٤

حضارة الاسـلام

أنكر الغرب حضارة الاسلام وفضلها على حضارة أوربا الحديثة ، ولكن عشرات من أعلام الفكر الغربى قاوموا هذا الاتجاه وزيفوه . منذ كتب جوستاف لوبون كتابه حضارة العرب ١٨٨٤ حتى اليوم بكتابات أرنولدتوينبى فى آخر مؤلفاته سنة ١٩٥٤ «الحضارة فى فترة اختبار» .

حيث يقول : عندما كادت حضارة الغرب (يقصد الحضارة الرومانية) تنحدر الى الهاوية فى القرن السابع المسيحى وظهرت الحضارة الاسلامية الفتية ، حتى أصابت الغرب نوبة هستيرية لظهور هذا الخط الجديد ، وأشد ما خشيه الغرب من الحضارة الإسلامية الناشئة أنها كانت تستند الى مثل أعلى فوق المادة ولا ينفع فى دفعه ما لدى الغرب من أسلحة ما دية .

ويؤكد توينبى أن الاسلام لم يدخل فى معركة مع رسالة عيسى ولكن مع الكنيسة المسيحية التى استولت على عقول الروم ، واستسلمت الى ما دعت اليه الوثنية الاغريقية من الشرك وعبادة الأصنام » .

ويقول «إن الاسلام قد استنكر هذا الشرك واسترد عبادة الاله الواحد الذى دعا ابراهيم الى عبادته من قبل ، وهكذا حمل الاسلام شعبة التوحيد بين المسيحيين المشركين من جهة والهندوس المشركين من جهة أخرى .

وعنده «أن عقيدة التوحيد التى جاء بها الاسلام هى أروع الأمثلة لى فكرة توحيد العالم وأن فى بقاء الاسلام أملا للعالم كله » .

ويقول إن الاسلام قد قضى على النزعة العنصرية والصراع الطبقى بتقرير مبدأ الاخاء الاسلامى والمساواة المطلقة بين المسلمين ..

ويدعو توينبى العالم الى الأخذ بهذا المبدأ الاسلامى ، كما يدعو الغرب الى نبذ معاداة المسلمين وبذلك تنجو المدنية الحالية مما يدب اليها اليوم من عناصر العداء .

٢ ـ ويصور لوثرب ستودارد فى كتابه «حاضر العالم الاسلامى» عظمة الحضارة الاسلامية فيقول : إن العرب «موئل الاسلام» ما كانوا أمة تحب إراقة الدماء وترغب فى الاستلاب والتدمير بل كانوا على الضد من ذلك أمّة موهوبة عظيمة الأخلاق تواقه الى ارتشاف العلوم ، تلك النعم التى انتهت اليها من الحضارات السالفة .

٣ ـ وأشار واصف بطرس غالى الى اتهام الاسلام بأنه عدو المدنية فقال : زعموا أخيرا وتلك هى التهمة العظمى أن الاسلام عدو المدنية وجوابنا على هذا الزعم يمكننا أن نسوقه للتدليل على بطلانه هو تاريخ قرون عديدة وفى الواقع لا يستطيع أحد أن ينكر أنه كانت للعرب مدنية زاهرة .

٤ ـ ويقول رينان[1] : إن محمدا العظيم أتى بديانة انبعثت عنها مدنية عالية لا يصح بجانبها اتهام اتباعها المتأخرين بالجمود ، ففترات الازدهار

---

(١) ص ٢٨٥ من كتابه تعليقاتى على تاريخ الاديان (نقلا عن طه المدور فى كتابه الديانات والحضارات) ..

والانحطاط. مرت على رأس جميع الأمم بما فيها أوربا المتعجرفة وما يدرينا بأن يعود العقل الاسلامى الولود والكثير المواهب الى ابداع مدنية أرقى من زميلتها المندثرة، بل وما يدرينا ما عساه أن يصبح بعد قليل مصير المدنية الأوربية الحالية التى هى وليدة التمدن الاسلامى القديم .

٥ - ويقرر المستشرق لوسين بوفا[1] ان الاسلام يتفق مع مدنية زماننا الحاضر تمام الاتفاق ، ويقول «وفى الواقع أن التقدم الذى نشاهده فى الممالك الاسلامية منذ قرن دليل على أن الاسلام يسير مع المدنية جنبا الى جنب والاسلام سيظل موجودا دائما والانحطاط. الذى وقع فيه المسلمون له أسباب متعددة ، ليس الذنب فى اكثرها على المسلمين ، بل على الحكم المطلق وجهل الحكومات مما أدى الى انتشار الجهل واضطرار دول الاسلام الى خوض حروب كثيرة وسوء خطة الغربيين فى معاملة المسلمين .

٥ - ويصور كمال ولف شحوماكو (استاذ - ب جاوه) فى كتابه بحوث عن الثقافة الاسلامية أثر الاسلام فى الحضارة فيقول :

إن المنصفين من رجال التاريخ لا يسعهم أمام الحقائق الواضحة الا أن يعترفوا بأن الاسلام هو العامل القوى فى نفخ روح البحث والتنقيب وحب العلم فى البلاد المجاورة لأوربا وفى أسبانيا وأن لهذه البلاد تأثيرا عظيما فى كيان الثقافة الغربية السريعة النمو فى القرون الوسطى فحينما كانت تعاليم النصارى بأوربا توقد نيران الحروب وتشن الغارات على كل بحث علمى وكل تفكير حر ، وكادت تفنى البقية الباقية من الثقافة اليونانية الرومانية

(١) مجلة الزهراء (محب الدين الخطيب) م ١ ص ٤٩٦

فى أسر الأوهام الكنسية ، فى ذلك الوقت كانت المدنية الاسلامية فى أوج رقيها المنقطع النظير وكان لها نفوذ قوى وتأثير لا يقاوم فى عقول أهل العلم بأوربا ، الذين بدأوا يدركون حياة علمية أرقى مما أدركه غيرهم من الأوربيين ، فانبعثوا يقاومون كل ما يصدهم عن العلم من معتقدات ، فى فى تلك القرون الوسطى ، حينما كانت أوربا منسلكة فى دياجير الظلمات نفذ الى أوربا شعاع من أشعة الحضارة المشرقة من بلاد الاسلام ، ان تعاليم القرآن وأحاديث النبي نفخت فى الأمة الاسلامية روحا قويا أوجدت تقدما باهرا ورقيا عظيما . هذه الروح سرعان ما تسربت الى أوربا ولا سيما عن طريق أسبانيا فهيأت عوامل نهضتها فى أواخر القرون الوسطى وسببت وجود مقاومة تجاه الاضطهادات الروحية الآتية من قبل الكنيسة . وهى المقاومة التى استمرت الى القرن الثامن عشر .

إن «للاسلام» فى تاريخ الغرب معنى عظيما وأهمية كبيرة لم يستطع أحد بعد إدراك كنه ذلك وغايته .

وقد حاول البعض إنكارها تعصبا ، كما فعلوا بتعاليم الاسلام وما فيها من العقائد الطاهرة وتربية الأخلاق العالية .

وما عليه أكثر الشعوب الاسلامية اليوم من التأخر والانحطاط ليس من الدين فى شئ . وقد أصبح المسلمون ضعفاء مع أن لهم دينا ساميا يبعث على التقدم والرقى ، الروحانى ، وسارت الأمم الغربية قوية راقية مع أن دينهم يضطهد العقول ويقهر حرية الأفكار .

والفضل للاسلام فى ايجاد روح البحث والانتقاد بأرض أوربا ، حتى استطاعت إضعاف التعصب للمعتقدات الوهمية المناوئة لتقدم العلم ورقى الفكر .

موقف الاسلام من العلم

كان أبرز مظاهر التحامل على الاسلام ما ذهب اليه قادة الحضارة الغربية من اتهام الاسلام بأنه لم يكن له فضل على العلم وأن دوره كان قاصرا على نقل علوم اليونان والرومان ، دون أن يضيف اليها شيئا . وكان قول أغلبهم أن حضارة أوربا الحديثة فى عهد النهضة اتصلت بحضارة أوربا القديمة (الحضارة الرومانية) وبينهما فترة ظلام أطلق عليها اسم العصور الوسطى مقدارها ألف سنة .

وكان هذا هو غاية الجهود فى النظر الى دور الاسلام من العلم والمدنية .

١ ــ وقد اعترف المنصفون فى هذا المجال بفضل الإسلام ومنهم هورتن الالمانى(١) الذى أعلن فى صراحة أن المسلمين فى القرون الوسطى وإلى سنة ١٥٠٠ تقريبا أساتذة أوربا ..

وقال : لم ينشأ ظن الأوربيين بأن الدين الاسلامى لا يتمشى مع المدنية الا نتيجة مبهمة لهذا الدين ولعدم تعمقهم فيه بل لتعلقهم بالقشور التى لا يفهمون منها الا ما يكتبون .

وفى «الاسلام» وحده نجد اتحاد الدين والعلم ، فهو الدين الوحيد الذى يوحّد بينهما ، فنجد فيه الدين ماثلا متمكنا فى دائرة العلم ونرى وجهة الفيلسوف ووجهة الفقيه متعانقتين فهما واحدة لا اثنتان .

---

(١) من كتاب استعداد الاسلام لقبول الثقافة الروحية ــ نقله المنار ج٢م٣٠

ولقد كان إيمان «ابن رشد» الفيلسوف بالله عظيما ، وكان معتصما بالقرآن حتى بكل كلمة فى القرآن ، ومع ذلك لم يمنعه دينه والقرآن الذى يعتصم به من مطابقة الفلسفة اليونانية والأخذ من آثار أرسطو والبناء عليها .

ولا تجد فى الاسلام سدًا يمنع نفوذ الثقافة الغربية عنه بل ترى أن له استعدادا غير محدود لقبول الثقافة . ولا شك أن استعداد الاسلام لقبول أى ثقافة غير اسلامية لاحدود له .

٢ ــ أما جوستاف لوبون فقد اعترف بفضل المسلمين فى أكثر من موضع فى مؤلفاته وأهمها «حضارة العرب» «هل من الواجب أن نذكر أن العرب ، والعرب وحدهم هم الذين هدونا الى العالم اليونانى واللاتينى القديم وأن الجامعات الأوربية ومنها جامعة باريز عاشت مدة ستمائة سنة من ترجمات لكتبهم وجرت على أساليبهم فى البحث ، وكانت المدنية الاسلامية من أدهش ما عرف التاريخ .

إن القرون الوسطى لم تعرف الأمم القديمة الا بواسطة العرب ، وأن جامعات أوربا عاشت خمسمائة سنة بكتب العرب ، وأن العرب هم الذين مدنوا أوربا فى المادة والعقل والخلق وأن الشعوب التى دانت الأرض لسلطانها قد عفت الأيام آثارهم ، ولم يبق سوى ذكريات ألسنتهم وأديانهم ولكن أهم عناصر مدنية العرب وهى الدين واللسان والفنون لاتزال حية .

ولا شك أن العرب هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين .

٣ - ويقول لويجى رينالدى العلامة الايطالى : أن أمة هذه مدنيتها وتلك آثارها ومفاخرها جدير بنا أن نحفظ. لها تلك اليد التى قدمتها إلينا وأسلفتها لنا وأنه بعد سقوط. الدولة الرومانية لم يكن هناك شعب يستحق أن يعرف غير الشعب العربى .

٤ - أما المؤرخ الفرنسى لاريل (Larallee) فى كتابه مدنية الاسلام بأسبانيا فقد اعترف بمزايا المسلمين فى الصناعة والزراعة والبناء وخصائص الهندسة العربية وقرر أن المسلمين هم أول من استعمل المدافع - النارية فى أوربا وأنهم فاقوا الغربيين فى جميع الفنون[1] .

٥ - ويقرر المستشرق سبنسر فاميرى فضل المسلمين على العلم :

«لا يستطيع عالم واحد أن يتأمل القبة الزرقاء دون أن يلفظ. اسما عربيا ولا يستطيع عالم طبيعى أن يحلل ورقة من الشجر أو يفحص صخرة من الصخور دون أن يتذكر درسا عربيا ، ولا يقدر أى قاض أن يبت اليوم فى اختلاف دون أن يستدعى مبدأ أملته العرب ولا يسع أى طبيب أن يتأمل دائرة أحد الأمراض المعروفة منذ القدم الا أن يهمس باراء طبيب عربى ، ولا يستطيع أى رحالة أن يدلف الى أبعد زوايا أسيا وأفريقيا دون أن يعمد الى اللغة العربية فان انتشارها قد بلغ من الذيوع والسعة بحيث يؤكد البعض دون مبالغة بأن خمس شعوب الكرة الأرضية يتكلمون العربية وأن يؤكد أن أى لغة أخرى لا يتكلم بها شعوب بلغ اختلاف أجناسها وتباينها مبلغ المتكلمين باللغة العربية .

---

(١) نقلا عن خلاصة تاريخ الاندلس للامير شكيب ارسلان ص ٣٦٥

فاذا ذكرنا أن العرب طوال قرون ثمانية فى الأندلس مستودع أعظم العلوم فى ذلك الحين فانه بوسعنا أن نعتقد أن مادة غير محدودة من التاريخ والعلوم والاجتماع والحقوق قد وصلتنا من تلك الأرض المقدسة .

٦ – ويدافع جيبون فى كتابه (سقوط المدنية الرومانية) عن موقف عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص من تهمة التآمر على احراق مكتبة الاسكندرية وأثبت أن الذى أحرقها إنما هم الرومان بمراكبهم الحربية فى حصارها لجيوش كليوباترة بقيادة يوليوس قيصر ، وكان قد ألصق هذه التهمة بالمسلمين الرحالة عبد اللطيف البغدادى ...

٧ – ويقول ديفونويب فى كتابه (اعتذار الى محمد والاسلام) :

يجب أن نعترف بأن علوم الطبيعة والفلك والفلسفة والرياضيات التى أنعشت أوربا منذ القرن العاشر مقتبسة من القرآن ، بل إن أوربا مدينة للاسلام بأكثر من ذلك ، لأن الدين الذى أمر بالدستور والديمقراطية ونهى عن الاستبداد فى قوله تعالى (وأمرهم شورى بينهم) و (وشاورهم فى الأمر) قد فتح أمام الانسانية الحقوق المدنية .

ولتذكر أوربا أنها مدينة للمسلمين بحفظ آداب الغرب القديمة حينما كانت هى فى ظلام دامس فحفظوا آثار فلاسفة اليونان وآثار علوم الطب والهندسة وبالجملة فالمسلمون هم أساتذة أوربا(١) .

٨ – وقد دافع «واصف بطرس غالى» فى كتابه بالفرنسية (البطولة عند العرب) عن موقف الاسلام من العلم ورد على الحملة التى شنها رينان فى محاضرة

(١) المنار : ص ٧١٥ م ١٣ ج ٩ : ٣٢

له فى باريس (٢٩ مارس ١٨٨٣) حمل فيها حملة شعواء على المدنية الاسلامية فزعم أنها ليست فى الواقع الا المدنية اليونانية أخرجت من الظلام لا على يد العربى وانما على يدى السوريين والكلدانيين والفرس .. والأسبانيين بعد أن أصبحوا مسلمين بالغزو واللغة .

وقال إن الاسلام قد حث على العلم فى عديد من أحاديث نبيه :

* طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .
* أفضل الناس المؤمن العالم .
* من سلك طريقا يطلب به علما سلك الله به طريقا الى الجنة .
* – يوزن مداد العلماء يوم القيامة بدماء الشهداء .

٧ – وقال تريتون فى كتابه الاسلام : معتقداته وطقوسه : ان الاسلام يكبر من شأن العلم اكباراً لا شائبة فيه فهو فريضة على كل مسلم ومسلمة .

٥

الاسلام والاستعمار

كان هدف الاستعمار من الحملة على الاسلام افساح المجال للنفوذ الأجنبي وتثبيت أركانه . فالاسلام عقبة ضخمة فى سبيل مقاومة الاستعمار بقيمه وتعاليمه ومفاهيمه الداعية الى التوحيد والجهاد والحرية والوحدة .

ولقد كان الغربيون يظنون أن حملاتهم على الاسلام ستقضى عليه وتحول أهله عنه الى مفاهيم الغرب وقيمه فيسقط. على النحو الذى كانوا يتوقعونه .

ولكن الاسلام لم يسقط ، وقد أكد قدرته على المقاومة غير واحد من كتاب الغرب المنصفين .

١ ـ يقول الدكتور « كريسينان سنوك هيرجرونحيه[١] » وقد صاحب الاسلام ربع قرن فى جاوه والملايو :

الاسلام لا يقاوم النصرانية ، لأن الاسلام فى المستقبل سيشكل نفسه حسب حاجات العصر الحديث ، ولكن لن يدع النصرانية تغلبه وتسلبه أبناءه الذين كسبهم من مئات الأجيال ، وقد طبعوا بطابعه وصاروا جزءا منه وهم يمثلونه فى سائر بقاع الأرض .

(١) البلاغ الاسبوعى ـ ٢٧ نوفمبر ١٩٢٩ .

فالمسلمون سيستمرون فى دينهم مهما اتخذوا من الثقافة والمدنية الغربية وفى الجامعات الكبرى تجد الكثيرين من المسلمين ولكن مجرى عقولهم لا يزال اسلاميا ، كنت أعرف الطالب المسلم من غير المسلم فى جامعتى بمجرد الاطلاع على مبحثه الذى كتبه ، فنى المسلمين ميل قوى الى التمسك بدين أبائهم ، وتطبيقه على الحاجات الحديثة .

٢ ـ أما القس اسحق طيلر رئيس الكنيسة الانجليزية(١) فيرى أنه لن يترك المسلمون دينهم يقول «لا يدخل فى العقل أن يترقب أن المسلمين سيتركون عقائدهم وصور عباداتهم التى تربوا فيها ويقبلون رسومات مرسلى النصارى الضيقة الذين يجتهدون فى أن يردوهم عن دينهم .

وتهمة أخرى .. هى أن الاسلام غير متقدم ، والواقع أن الكنيسة أبطأ من الاسلام ، والتقدم بين أتباعها اقل جدا مما هو بين المسلمين .

٣ ـ أما مستر (جب) وله الباع الواسع فى دراسة أحوال المسلمين المعاصرة فيتساءل :

هل من الممكن أن يحتفظ المسلمون بوحدتهم الدقيقة أمام هجمات العلوم الأوربية وتجاه الفوارق السياسية .

ثم يجيب على ذلك بأن الاسلام ليس عدوا للمدنية الغربية ، ويقول ... «لاشك أن البلاد العربية المتجانسة كمصر والجزيرة العربية وفلسطين .. وسوريا والعراق ستلعب دورا يكون له الشأن الأول فى نصر الاسلام . فلهذه البلاد ثقافة راقية تتقدم يوما بعد يوم بفضل اللغة العربية الفصحى ..

---

(١) كتبها فى صحيفة سنت جمس غازيت الانجليزية ١٨ ابريل ١٩٨٨ بعد زيارة لمصر والعالم الاسلامى ونقلتها مجلة المجلات العربية (اكتوبر١٩٠٢)

ويقول : ولن يجرى فى البلاد العربية ما جرى فى بلاد الترك . فالعرب متمسكون بلغتهم وأدبهم ويتغنون بمجد الاسلام ، ولم تقم فى بلادهم أى حركة وطنية الا وكانت الروح الاسلامية أساسها وستبقى الروح الاسلامية تسود بلادهم وتتقدم .

٤ – ويرى الاستاذ تربيون (استاذ اللغات الشرقية بجامعة لندن) فى كتابه (الاسلام معتقداته وطقوسه) أن الدين عند المسلمين حقيقة واقعة ، وجزء متمم لحياتهم اليومية ، وهو ليس رداء يرتديه الاحبار والعلماء ، ومن ثم فهو يجعل المسلمين اذا وقعت الواقعة وادلهم ليل الخطوب ثابتى الايمان لاتنزعزهم العواصف والانواء ..

٢ – ويعرض الاستاذ مونته (كلية جنيف) لحاضر الاسلام ومستقبله فى محاضراته[1] فيقول ان الاسلام ينتشر فى افريقيا بنفسه بواسطة المسلمين أنفسهم لأن كل مسلم فى البلاد الوثنية داعية دين بحد ذاته . ويقول ان الاسلام ينتشر بنفسه بواسطة القوافل التى ترحل فى البلاد الوثنية أو الفيشية ، ودعاة الاسلام لما عرفوا به من الغيرة يعمدون الى ذرائع مختلفة تناسب كل حال بحسب الأقطار والشعوب التى يبثون دعوتهم بين أهلها .

وهكذا نرى الدعاة المسلمين قد أنشأوا قرى يسكنها المهتدون الى دينهم من المحدثين فى الاسلام ولطالما انتفعوا من القحط الذى كان يلقى بجرانه على أصقاعهم .

---

(١) مجلة المقتبس م ٦ ص ٣٧١

والمدرسة هى احدى العوامل الفعالة فى نشر الدين أيضا ، فالمسلمون على الجملة عند ما ينزلون ويتوطنون فى بقعة جديدة يصرفون أول عنايتهم الى انشاء مسجد ويجعلون بجانبه مدرسة وينظرون الى المسلم فى بلاد زنوج الوثنيين فى افريقية بأنه أرقى من غيره وترى المرأة عند قبائل البجة النازلة بين النيل الأزرق واعالى البلاد الممتدة من شمال سطح بلاد الحبشة أرقى بعقلها من الرجل ، لذلك يختار دعاة الاسلام تعليمهن والاعتماد عليهن فى بث الدعوة على نحو ما فعل السنوسية بالزنجيات وهذه الطريقة فى الدعوة قد اشتهرت هناك والاسلام من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية نراه فى افريقيا قوة أسمى من غيره والاسلام باق فى مكانه اذا كتبت له الغلبة فى الشعوب الافريقية وبه خاصية تلائم الشعوب الافريقية ولا سيما السود منهم . وقد تبع الزنوج الاسلام ليحفظ حياتهم لما فى الاسلام من الادارة والتنظيم .

٦ - ويرى «شانليه» استاذ العلوم الاجتماعية فى احدى جامعات فرنسا .

«أن المسلمين يتبعون على الرغم من اختلاف لغاتهم واجناسهم فى العبادات الدينية والنواميس الاجتماعية وسائر المظاهر الأساسية للمدنية الاسلامية ، يلتقون فى صور واحدة ، الصلاة والاتجاه الى الكعبة .. ومجتمعهم يعطى صورة هيئة اجتماعية تتنزل بمنزلة الأسرة الواحدة .. الحفيظة على تقاليدها الموروثة .

واللسان العربى الذى نزل به القرآن لهم رابطة وعروة وثقى وتجرى قراءة القرآن به فى بلاد الصين وجزائر الفيلبيين ومراكش ، والكتابة به بين سائر المسلمين ، وتجد الكلمات العربية شائعة فى لغات الأوردو الهندية ، ولغة السواحلية وغيرها من لغات بربرافريقية فضلا عن الفارسية .

على ان الاسلام بالرغم من وحدة تعاليمه وتشابه عقائده القائمة على التوحيد لا ينفى التغيير والتبديل فى المسائل الفرعية والشئون الثانوية مجاراة لحكم الوسط. ومقتضيات الزمن .

وأساس الدين الاسلامى التوحيد وعماده وحدة التعاليم .

- ويصور (جورج رو) موقف الإسلام من التبشير فيقول إن الوصف المميز للاسلام أنه دين عالمى معمول به اكثر من أى دين غيره ، فمن بين سكان الكرة الأرضية نجد المسلمين اكثر الامم اعتدادا بتعاليم دينهم . فلا تصادف مسلما يرتد عن دينه ، وقد نجح بعض المرسلين فى حمل المسلمين على حبهم ، ولكنهم خابوا فى حمل مسلم واحد على تغيير دينه . وكتب الكردينال .. (لافيجرى) أن تنصير المسلمين مشروع لن يؤدى الا الى الخيبة .

وأن الاسلام من بين جميع الأديان العالمية يجارى المسيحية فى تقدمها ، فلا يغيب عنا الكسب العظيم الذى تناله الكاثوليكية باستمرار فى الهند والصين بفضل المرسلين الدينيين ومع ذلك فان الاسلام يكسب هناك بقدر ما يكسب ديننا ولكن القاعدة تنعكس فى افريقيا فالاسلام ينفرد بالكسب وحده هنالك .

فعدد المسلمين يزداد فى جزيرة مدغشقر يوما بعد يوم ، وأعظم نجاح يصيبه الاسلام هو فى افريقيا السوداء ، فالسودان الذى كان موطنا للوثنية أصبح اليوم معقلا من معاقل ديانة محمد وبلاد السنغال وغينيا حتى الكونغو يدخل أهلها فى الاسلام أفواجا أفواجا » ....

٨ – وهذا رأى «جوستاف لوبون» الذى أعلن منذ أكثر من ثمانين عاما بأن الاسلام ينتشر كل يوم فى افريقية من دون أن تبذل همة فى سبيل نشره ويحقق المبشرونمن الأوربيين فى سبيل دعوتهم الى دينهم اخفاقا شنيعا .

٩ – وفى تقرير لمسيو لويس ما سنيون من كتابه الاسلام والغرب[١] :

أن الاسلام محتفظ بقوته فى أقصى الشرق ويرجو أن يزداد قوة فى مستقبل الأيام أما فى الغرب (يقصد المغرب) فالاسلام واقف موقف الدفاع الطبيعى ومتعاون مع بعضه تعاونا حقيقيا فى سبيل المطالبة بالاستقلال .

ومن الارهاصات أن الجنود المسلمين المجندين فى الجيش الفرنسى وغيره من جيوش الدول الأوربية ، فى افريقيا الغربية الفرنسية والنيجر .. والهند والقوقاز محافظون على دينهم ، وأن الاتراك المؤمنين قد اخذوا ينفرون نفورا متزايدا من الكتابة اللاتينية التى اوجبها عليهم كمال أتاتورك كما أن ايران أحجمت عن استعمال الحروف اللاتينية فى كتابتها وقد بلغ التضامن الاجتماعى والثقافى بين المسلمين هذه المرتبة من النشاط فى أقصى المشرق وأوسطه ، والحالة فى أوربا على خلاف هذا فان أوربا لم توفق الى الان الى المطابقة بين أساليبها الثقافية والدينية العصرية وكفى به انحطاطا .

وهذا ما جعلنى أعطى أهمية كبرى لفلسفة السيد محمد اقبال الذى زرت ضريحه بمسجد لاهور فى الهند .

ان المسلمين الذين توجد منهم جماعة كبيرة فى اسطنبول وطنجه ،

---

(١) مجلة لسان الدين (المغرب ، مارس ١٩٤٨

وبورسعيد وعدن وكراتشي وسنغافوره وانطاكية واقعون تحت مراقبة وهم في مأمن من هجوم الأجانب عليهم الا من الناحية الاقتصادية غير أن النفوذ الأجنبي في العواصم العلمية يوجب على الاسلام التفكير طويلافي أمره فان كلا من مدينتي تونس والقدس ليس فيهما أكثرية اسلامية وأصبحت مدينة القاهرة شبه عاصمة للعرب والمسلمين » .

١٠ – ويقول طيلر[١] عن التبشير في افريقيا ، ان القبيلة الافريقية اذا اعتنقت الاسلام لا ترجع ابدا الي الوثنية ولا تعتنق الديانة المسيحية ولعمري أن الاسلام قد خدم المدنية خدمة لم تقدر عليها النصرانية .

١١ – وقد أعلن[٢] (غاندى) بأن الأوربيين يخشون الاسلام ، لأن الذين يعتنقونه يحتمل أن يطالبوا البيض بالمساواة ومن حق هؤلاء أن يخافوا لو كانت الأخوة خطيئة . فاذا كان البيض يخافون من المساواة بالعناصر الأخرى فان المخاوف من الاسلام تقوم على أساس صحيح أني رأيت الزروسي الذى يعتنق المسيحية لا يصعد بطبيعة الحال الى مستوى المسيحيين على حين أنه اذا اعتنق الاسلام يشرب من نفس قدح المسلمين ويأكل من قصعتهم » .

---

(١) جريدة التيمس – ٧ اكتوبر ١٨٨٧
(٢) المنار ج ٢ م ٣٢ عن مجلة ذى لايت (لاهور)

٦

مستقبل الاسلام

عنى كثير من الباحثين بالنظر الى مستقبل الاسلام ، هل يبقى ، هل يسقط ، هل يستطيع أن يواجه التطور والمدنية . وذهبوا فى ذلك مذهب المتشائمين ، حين قال بعضهم ان الاسلام سيسقط عند ما يواجه المدنية الحديثة ، ولكن «سنوك هيروجرونجيه[1] الهولندى الذى عاش فى الملايو واندونيسيا أكثر من ربع قرن يدرس الاسلام ، فلسفته وشريعته وتاريخه ، وعلاقته بالمؤسسات السياسية والاجتماعية وقضى عاما كاملا فى المدينة المنورة متخفيا لا يرى هذا الرأى .

* * *

«لا اعتقد[1] ابدا» ان الدين الاسلامى سيسقط يوما ما امام النصرانية ، لأن المسلم محتاط أشد الاحتياط لمقاومة النفوذ الأجنبى ، فهو يعرف .... المسيحية التى ليست عنده شيئا جديدا غير مألوف فقد عرف أصلها وطريقة نشوئها وهو يعتبرها دينا تطور بالتدريج ، ولا يمكن أن يقع انحطاط تدريجى فى الاسلام لأنه توجد بواعث خارجية تمنعه فالاسلام قوى ولم يضعف وزد

---

(١) البلاغ الأسبوعى ـ ٢٠ نوفمبر ١٩٣٩ وم ١٧ج ٣ (المنار) ص ٢١٢

على ذلك أن الاسلام يربح أكثر من النصرانية ، فالذى يصير مسلما لا يطلب منه شئ كثير اذ لا يوجد تقديس ولا طقس دينى ولا تعليم طويل ، كل ما يطلب منه أن يعترف بالله أنه كل القوة ومن ثم يتدرج الى تعلم الفرائض وعند ما يصير مسلما يتغير مركزه الاجتماعى ولكن اذا تنصر فانه يبقى دون غيره . وأن القول بأن الاسلام محتاج الى النصرانية للترقى هو أسوأ قول او رأى ، فالمسلمون قد احتاطوا أعظم احتياط. لهذا الأمر (التبشير) حيث قضيت سبع عشرة سنة ملتصقا بهم تمام الالتصاق بالمؤسسات الاسلامية ولا يستطيع المبشر المسيحى أن يربح تابعا واحدا لدينه حيث الاسلام معتقد قديم ثابت ، وليس دينا حديثا وسيجدون صعوبة كبرى فى تنصير المسلمين ، وبالجملة فان نشوء الاسلام فى القرن الجارى لا يكون شيئا باعثا على الدهشة بل سيكون مطابقا للحركة العمومية التى تقرب بين الأمم والأديان دون زوال الاحترام للتقاليد الموروثة عن السلف .

٢ ــ أما «جورج برنارد شو» فقد واجه هذه المسألة على نحو آخر فى بحث له بعنوان (الاسلام بعد مائة سنة) ..

يقول : ان المستقبل العاجل عند ما يريد الرجال المفكرون أن يلجأوا الى دين يحمى الفضيلة ، ويقى المجتمع ، ويكون سببا للحياة السعيدة فى البشر فسيجدون الاسلام هو الدين الوحيد الذى يضمن لهم التقدم والنجاح . وأول البراهين على ذلك ، أن الاسلام لا يمنع أى تقدم سواء كان فى النهضة الفلسفية أو الكيماوية .

فالاسلام هو الدين الذى نجد فيه حسنات الأديان كلها ولا نجد فى الأديان حسناته .

والإسلام دين حرية لادين استعباد وقد قرر أخوة الإسلام منذ ألفين وثلاثمائة وخمسين سنة وهو المبدأ الذى لم يعرف عند الروم والسابقين ولا عند الاوربيين والامريكيين الحاضرين .

واذا سألت العربى أو الهندى أو الفارسى أو الافغانى ، من أنت يجيبك «انا مسلم» أما الغربى اذا سألته من انت قال : انجليزى او طليانى او فرنساوى

فالاسلام يوحد بين أهل العقيدة المشتركة دون أن يجعل أى فرق بينهم بسبب أوطانهم والوانهم وجنسياتهم .

لقد نصب الاسلام شابا أسود البشرة أميرا على جيوش المسلمين وفيها كبراؤهم ، فالحكومة الديمقراطية لم تعرف الا فى الاسلام ، وتقسيم الميراث الذى فيه اكبر فائدة للاجتماع فرضه الاسلام منذ ١٣٥٠ عاما ولكن الغرب بقى بجهله الى هذه الساعة والاسلام حرم الربا وجعل من المستحيل انحصار الثروة عند أقلية من الناس .

هذه الحقائق تجبرنا على الاعتقاد بأن الدنيا بأكملها وانجلترا على الاخص ستقبل الاسلام وأن هى لم تقبله باسمه الصريح فستقبله باسم مستعار .

٣ ـ وقد تحدث رينيه ميليه عن انتشار الاسلام فى محاضرة القاها فى مؤتمر افريقيا الشمالية المنعقد فى باريس ١٩٠٨ فقال :

«انى لا أريد ان أذكر انتشار الاسلام لأنه الدين الوحيد الذى ينتشر ويزداد أهله بسرعة فى اسيا وافريقية فى حين أن الأديان الاخرى بقيت واقفة

عند حد محدود لا تتجاوزه البتة ، وقد اصبحت المسألة لا نزاع فيها ، ولكن ماذا تقولون اذا ثبت لكم أن الاسلام شرع يطبق العلوم الحديثة ويستفيد منها .

الاسلام دين اعتاض عن تعدد درجات الادارة بسلطة واحدة يرجع اليها الحل والعقد فى كل الأمور ، ولم يقرر شيئا من وساطة القسيسين بين الاله والشعب ولم يسن نظاما الصوامع ، وقضى على عادة العزوبة التى كانت متبعه ومستفيضة ،وعلى عادة النسك والخروج من الدنيا ، فقرر الاشتغال .. بالدنيا والاخرة معا ، ثم ان الاسلام أرجع الدين الى حاله الطبيعية ، ولم يأت بشيء من تلك العقائد المسيحية الفلسفية بل قال بكل وضوح (لا إله إلا الله) وبذلك خلا الاسلام من ذلك الاعتقاد الذى قسم الدول الأوربية والذى جعل أهل مصر واسيا الصغرى فى حالة استياء من تسلط الدولة البيزنطية . وكيف لاتميل هذه الشعوب الساخطة الى أهل الاسلام وهم يعلنون أنهم أهل التسامح مع مخالفيهم فى الدين .

ان الفتوحات الاسلامية كانت على البغال ، الا أن العرب أتوا بعقيدة ، سهلة التناول لا تثقل الجندى المجاهد ، ثم انهم فوق ذلك كانوا مشبعين بروح التسامح ، وهذا سر الانقلاب العظيم الذى أعطاهم ملك اسيا وافريقية ونصف اسبانيا .

اتى المسلمون بعقائد سهلة ملائمة للفطرة ، وأعطوا الحياة الدنيا قسطها من الاعتبار فترقت العلوم والفنون والاداب باجتهادهم الذى عجز عنه المسيحيون الذين عاصروهم .

وقد جاء المسلمون فى نفس الوقت بمبدأ جديد فى البحث يتفرع عن الدين نفسه ، وهو مبدأ التأمل والبحث وكان اهتمامهم بكتاب ارسطو اكثر منه تخيلات افلاطون وبرعوا فى علوم الطبيعة ، وهم الذين وضعوا أساس علم الكيمياء ، ولفرط تقديرهم للحياة الدنيا نبغ فيهم الشعراء المجيدون .

وقد أعطى الأسلام أشهر ثمرة لما سرت اليه روح المدنية القديمة خالصة من الشوائب[1] .

٤ ـ ويقول جورج سارتون فى كتابه الشرق الأوسط فى مؤلفات الامريكيين «ان المسلمين يمكن أن يعودوا الى عظمتهم الماضية والى زعامة العالم ... السياسية والعلمية ، كما كانوا من قبل ، اذا عادوا الى فهم حقيقة الحياة فى الاسلام والعلوم التى حث الاسلام على الأخذ بها .


وان تلك الهزائم السياسية التى منى بها الاسلام لم تزعزع ثقة المسلمين بأنفسهم بل هى على العكس زادت من ايمانهم .

وأن شعوب الشرق الأوسط سبق لها أن قادت العالم فى مرحلتين .. طويلتين من مراحل التقدم الانسانى طوال الفى سنة على الأقل ، قبل أيام اليونان ثم فى العصور الوسطى مدة أربعة قرون تقريبا وليس ثم ما يمنع تلك الشعوب أن تقود العالم ثانية فى المستقبل .

٥ ـ ويقول اللورد هدلى أنه لو ندبت لجنة من الأنجليز الاكفاء لفحص الدين الصالح لأن يتدين به العالم كله لاجمعوا على اختيار الاسلام .

---

(١) ص ٨١٨ م ١١ المنار



٢

القــــرآن

القرآن

واجه «القرآن» حملة شديدة من الفكر المسيحى منذ مطلع النهضة الأوربية فقد أقبل القسس والعلماء على ترجمته ترجمة محرفة ومجزأة ونشر الترجمات مع الرد عليها . وعنى علماء الاستشراق بتأليف دراسات ضافية فى تفسيره وتاريخه وترجمة ما كتب من التفاسير كالبيضاوى ، والزمخشرى والسيوطى كما اهتموا بعلم القراءات .

وفى تقرير نشر فى خلال الحرب العالمية الماضية[1] أن ترجمات القرآن بلغت ٩٥ ترجمة الى مختلف لغات العالم : الانجليزية (١٠ ترجمات بدأت ١٦٤٩) الفرنسية (٧ترجمات بدأت سنة ١٦٤٧) الألمانية (١٣ ترجمة بدأت ١٦١٦) . اليونانية ، اللاتينية ، البولونية ، الايطالية البرتغالية ، الاسبانية ، الصربية ، الهولندية ، الألبانية ، العبرية ، الهندوكية ، الدانيماركية الارمنية ، البلغارية ، البنغالية ، الرومانية ، المجرية ، اليابانية ، البوهيمية ، الصينية ، السويدية ، الافغانية ، البنجابية ، السواحلية ، السندية ، الجاوية الهوجدانية .

والرأى[2] بأن أول ترجمة للقرآن قام بها روبرت الراتيني بمساعدة هرمان الدعاطى وتمت ١١٤٣ وبقيت محفوظة نيفا وأربعمائة سنة حتى طبعها تيودور بيلياندر فى باسل عام ١٥٤٣ .

---

(١) الهلال م ٤٨ ص ٣٤٣

(٢) المقتطف (يونيو ١٩١٥) صمويل زويمر .

والمعروف أن الغربيين قد أولوا اهتمامهم لترجمة القرآن من أجل مهاجمته وتفنيده ومحاولة خلق الاتهامات العنيفة له . وكانت أولى وأبرز اتهاماتهم أن القرآن من عند محمد وأنه متناقض ، وأن الخلفاء زادوا فى المصحف ، ونقضوا بالحذف والتبديل .

وكان الرأى دائما عند غير المنصفين أن القرآن هو العقبة الكؤود فى سبيل ارتقاء أمم الاسلام والمسئول عن تقهقرها على حد تعبير لورد كرومر فى كتابه مصر الحديثة الذى نشره عام ١٩٠٨ .

* * *

٢ - ومن عجب أن أرنست رينان قد أنصف القرآن فى كتابه (تعليقاتى[١] على تاريخ الأديان) فقال ان القرآن هو أساس الاسلام وقد احتفظ بكينونته القديمة دون أن يعتريه أقل تبديل أو تحريف . وعند ما تستمع الى آياته وما فيها من فصاحة وسحر تأخذك رجفة الوله والوجد ، وبعد أن تتوغل فى دراسة روح التشريع المنطوية عليه بعض تلك الايات الالهية لا يسعك الا أن تعظم هذا الكتاب العلوى وتقدسه .

٣ - أما ادوارد جيبون فيقول ان دين محمد خال من الشكوك والظنون والقرآن أكبر دليل على وحدانية الله بعد أن نهى عن عبادة الأصنام والكواكب وهذا الدين أكبر وأجل من أن تدرك أسراره العويصة عقولنا الحالية

ويقول : ان القرآن مسلم به من حدود الاقيانوس الاطلانطيكى الى نهر الكانج بأنه الدستور الأساسى ، ليس لأصول الدين فقط ، بل للأحكام

(١) نقلا عن كتاب الديانات والحضارات لطه مدور بيروت ١٩٥٦

الجنائية والمدنية والشرائع التى عليها مدار حياة نظام النوع الانسانى وترتيب شئونه .

٤ ـ وعندما ترجم (ادوار مونته) القرآن ، وهو مدرس الألسن الشرقية بجامعة جنيف عام ١٩٢٩ كان عليه أن يصور مفهوم القرآن فى نظره وعنده أن القرآن[١] فى الحقيقة ذو قيمة خارقة للعادة ، فهو بين الكتب العربية الدينية أعظم شأنا ، وهو يشتمل على الحياة الروحية لقسم من النوع الانسانى يقدر بمائتين وخمسين مليونا على الاقل[٢] والعقيدة القرآنية ذات علاقة وثيقة بالعقيدة اليهودية والعقيدة المسيحية ، والاثار النصرانية المتعلقة بالمسيح هى موضوع صفحات عديدة من القرآن ، على أنه لاينبغى أن يفهم من هذا الاتحاد فى أصلى الاسلام والنصرانية أن الاسلام القرآنى فاقدالاستقلال وانه ليس ذا صفه خاصة أصلية ، فالأمر بالعكس ، والاسلام دين لا يمكن خلطه مع دين آخر من الأديان السامية ، فهو دين سامى تحت صورة ، عربية خاصة تتجلى فيه روح اللغة العربية .

والقارئ يجد فى القرآن صفحات غاية فى الابداع سواء من جهة الفكر ، أو من جهة القالب الدينى الذى وضع فيه الفكر ، وكذلك نجد فيه لآلئ فريدة فى علم الروح معروضة فى آيات هى أعلى ما يمكن من الأسلوب الشعرى وهو فيه أسلوب قائم بذاته وفى القرآن منازع دينية ذات سعة مدهشة لا سيما بالنسبة الى العصر الذى عاش فيه ذلك المصلح العربى .

---

(١) ترجمة الامير شكيب ارسلان بتصرف (المنار م ٣٠ جـ ٥)
(٢) كان هذا الرقم مبالغا فى تصغيره والمسلمون الان على الاقل ٤٥٠مليونا

ومما جعل للقرآن هذه الأهمية أنه الكتاب الدينى للأمم الاسلامية التى تمثل فى شرق أوربا وفى العالم الأسيوى وفى ماليزيا وفى افريقيا دورا ليس مهما وحسب بل دورا ذا صلة شديدة بالأمم الغربية المسيحية .

وأخيرا نقول ان الذى جعل للقرآن هذه الأهمية الخاصة هو المستقبل المدخر للشعوب الاسلامية ، اذ لا ينكر أن مستقبلا فخما ينتظر هذه الشعوب .

٥ – أما العلامة «فينى» الذى كتب مقدمة هذه الترجمة فان مفاهيمه ربما كانت أكثر عمقا ووضوحا حيث يقول ان القرآن ليس بكتاب دينى فقط. بل كتاب علم وآداب . ونجد فيه بيان الحياة السياسية والاجتماعية حتى أنه يرشد الانسان الى وظائفه اليومية والأحكام السياسية التى ان لم توجد فى القرآن توجد فى السنة . والتى لا تكون واضحة لا بالقرآن ولا بالسنة توجد فى الفقه الواسع الذى هو علم الحقوق(١) .

أما «خالد شلدريك» فانه يرى أن القرآن ليس كتاب دين فحسب بل هو أعظم هاد الى سعادة الفرد والمجتمع وقد وقر ذلك فى نفسى منذ اطلعت عليه بالرغم من أنى قرأته مشوها ومحرفا من ترجماته المعلومة ، وليس كالاسلام دين أخلص العبادة لله وقرر عقيدة التوحيد الخالصة .

ولا شك أن معرفة كثير من المسيحيين بأن الانجيل الذى فى أيديهم أحدث عهدا من المسيح ووقوفهم على الاختلاف الواقع بين كتبهم الدينية له تأثير عميق فى اعراضهم عن بعض ما فيه من نصوص ، بينما المسلمون

---

(١) المنار م ٣ ج ٢

لا يرتابون قط. بأن القرآن الذى بين أيديهم هو الكتاب المنزل على نبيهم (صلى الله عليه وسلم) لا ريب فيه ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

٧ ـ هل القرآن حائل دون النهضة ؟

يجيب السير ريتشارد وود فى تقريره[١] السرى بقوله : ان القرآن يتضمن أحكام الدين وفى نفس الوقت يشمل الأمور المدنية والأصول السياسية

وأن كثيرا من مؤلفى الافرنج يزعمون أن المسلمين لايتسنى لهم التقدم والارتقاء فى معارج الحضارة ما داموا مقيدين بنصوص « القرآن » التى يقولون انها تلائم المعارف واكتساب الفنون . وهذا وهم باطل نشأ عن الجهل بمقاصد القرآن ، ويكفى برهانا على بطلانه تاريخ صدر الاسلام وعناية علماء العرب بالمعارف والفنون ، ودروسهم كتب الحكماء الأقدمين مثل أرسطو وأقليدس وأبقراط. وبطليموس وغيرهم .

٨ ـ أما « ولفجانج لانجرميش » وهو مستشرق ألمانى[١] فانه يرى أن القرآن أكثر الكتب التى تقرأ فى العالم ، وهو أيسرها حفظا ، وأشدها أثرا فى الحياة اليومية لمن يؤمن به ،فليس طويلا كالعهد القديم وهو مكتوب بأسلوب رفيع ، أقرب الى الشعر منه الى النثر ومن مزاياه أن القلوب تخشع عند سماعه وتزداد إيمانا وسموا ، وأوزانه ومقاطعه كثيرا ما قورنت بدقات الطبول وأصداء الطبيعة .

---

(١) سبقت الاشارة اليه اكتوبر طبع ١٨٧٨ ونشره محب الدين الخطيب٢ ٦٩١
(٢) مقال (اخترت الدفاع عن الاسلام) مجلة المختار مجلد ١٩٥٦ ص ٥٧

والمسيحي واليهودى الذى يقرأ القرآن لا يجد نفسه غريبا عما جاء فى آياته المنزلة .

ولا يعترف القرآن بأن عيسى هو ابن الله أو أنه قتل مصلوبا ، ولواعترف المسلمون بأن عيسى هو ابن الله لتناقض ذلك مع وحدانية الله ، هذه الوحدانية التى هى أحد أركان الاسلام .

ومن الملاحظ أن القرآن يتسم بطابع عملى فيما يتعلق بالمعاملات بين الناس وهو فى ذلك يقول « إذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه » .

وهذا التوفيق بين عبادة الاله الواحد ، وبين التعاليم العملية جعل القران كتابا فريدا ووحدة متماسكة .

٩ - ويصف البرت هويده الصحفى السويسرى الذى أسلم سنة ١٩٦٠ ولقب بأحمد عبد الله رمضان تجربته مع القرآن فيقول :

حينما تعمقت فى قراءة القران دهشت لعصرية القران فى علاقته بالعلم ، فنى الاسلام من المستحيل وجود مثل حادث جاليلا والتعاليم الاسلامية لم تعارض البحوث العلمية الحديثة ولم تقف فى وجه مقتضيات العالم الحديث

١٠ - أما الدكتور شبلى شميل مترجم نظرية داروِن الى اللغة العربية فقد تصدى لموقف القرآن من العمران[1] ردا على اللورد كرومر فى مهاجمته للقرآن فقال : لقد أخطأ مستر كرومر ، والخطأ تسرب الى حكمه حين قال إن شريعة القرآن لا توافق العمران فى كل عصر ، والقضايا التى استند اليها

(١) المؤيد - ٢٢ مارس ١٩٠٨

واعتبرها من جوهر الدين كان يمكنه أن يعتبرها من الدين الاسلامى كسواها من سائر الأديان (يقصد تعدد الزوجات وغيره من الاتهامات) .

وهل يعقل أن القران الطامح الى أبعد المرامى الاجتماعية يكون قد أراد بمثل هذه القضايا أن يجعلها غلا فى عنق العمران .

إن مسألة تعدد الزوجات ليست بالاعتراض الوجيه على القرآن لأنه نهى عنها نهيا صريحا بغرض العدل فيها لذلك لا تعد حجة على القرآن .

ونحن نرى أن الاسلام نفسه لن يكون عقبة حقيقية فى سبيل العمران . والمنصف لايسعده أن يلقى على القرآن تبعة تقهقر الأمم الاسلامية ، فاذا أرادت الأمم الاسلامية أن تجارى الأمم المتمدنة فى ارتقائها فالقرآن لايحول دونها .

وان فى القرآن أصولا اجتماعية عامة وفيها من المرونة ما يجعلها صالحة للأخذ بها فى كل زمان حتى أمر النساء وأن القرآن فتح أمام البشر أبواب ، العمل للدنيا والاخرة ، ولترقية الروح والجسد بعد أن أوصد غيره من الأديان تلك الأبواب فقصر وظيفة البشرية على الزهد والتخلى عن هذا العالم الفانى .

* * *

وبعد فقد استطاعت ترجمات القران المتوالية المتعددة ـ على ما بها من تحريف وعلى ما صحبتها من حملة ذات هوى ـ أن تصل الى بعض القلوب والعقول المشرقة فتحصل على مفاهيم صحيحة للقرآن ، على النحو الذى كشفت عنه هذه النصوص التى تدل فى مجموعها ، مع الاعتراف بمكانة أصحابها فى عالم الفكر والبحث ـ على أن القرآن منزل من عند الله ، وأنه فتح للمسلمين.

وللعالم مجال النهضة ، ولم يكن حائلا فى وقت ما دون التطور والحضارة ، وأنه استطاع أن يحتفظ بنصوصه كاملة لم يدخل عليها تحريف وقد كان حتى بالنسبة لمن تراه مترجما آسرا ببلاغته ومعانيه معا ، واضحا فى دلالاته ونصوصه المحددة وقد اعترف أغلب هؤلاء الباحثين بأن القرآن هو الدستور الأساسى ليس للدين فقط ، ولكن للحضارة والمجتمع .

ولا شك أن كثيرين ممن ترجموه تأثروا به كما حدث ذلك لادوار مونتة الذى قرأ التوراة والانجيل ، وعرف اليهودية والمسيحية ، واستطاع أن يعلن فى صراحة بأن الاسلام القرآنى له طابعه الاستقلالى وذاتيته الخاصة وأنه لا يمكن خلطه مع دين آخر .

وقد أبدى أغلب الباحثين اهتمامهم بابداع القرآن من جانبى الفكر والقالب الذى وضع فيه الفكر وكشف خالد شلدريك عن الفارق بين ارتياب غير المسلمين فى كتبهم واطمئنان المسلمين الى أن كتابهم لا يأتيه الباطل .

وذابت فى خلال هذه الدراسات اتهامات أمثال كرومر من حيلولة الاسلام دون الرقى ، فقد أكد الباحثون أن نصوص القرآن لا تعارض النهضة بل على العكس من ذلك فهى تدفعها وتقيمها .

وكشف الباحثون الطابع العلمى الذى يتسم به القرآن فى معاملات الناس ووضع الحلول لمشاكل المجتمع ، وعصرية القرآن فى علاقته بالعلم حيث لم يكن ممكنا أن يقتل جاليلو لو كان مسلما .

وكيف كانت صورة الاسلام فى القرآن مرنه ، وهو صالح لكل زمان ومكان ، وكيف يفتح القران ابواب العمل للدين والدنيا فى وقت واحد ، ولترقية الروح والجسد معا ، وانه تحرر من كثير مما اضطربت به الاديان الاخرى ، من غموض النصوص او الشكوك او الزهد والتخلى عن الحياة .

ترجمة القرآن

ترجم القران الى مختلف لغات العالم . بلغ عدد الترجمات ٩٥ ترجمة .

١) ـ عشر ترجمات الى اللغة الانجليزية بدأت ١٦٤٩ (اشلندروس وتوالت بترجمة جورج سيسل ١٧٤٣ (طبع ٢٦ مرة آخرها ١٩١٣) . . . . . . وترجمها رودول ١٨٦١ وبالمرباكسفورد ١٨٨٠ وترجمه عنه الحكيم خان ١٩٠٥ ومرزه أبو الفضل ١٩١٣ ومحمد على حمدى لاهور١٩١٦ وغلام ساروار (اكسفورد١٩٣٠) وبكتال ١٩٣٠ ويوسف على لاهور ١٩٣٥ .

٢) ـ سبع ترجمات الى اللغة الفرنسية بدأت ١٦٤٧ (دى رويد) نقلها عنه روس الى الانجليزية ١٦٤٩ والهولاندية (غلا سياكو) ١٦٥٨ والى الألمانية «لانكى) ١٦٨٨ والى الروسية دمتريوس كانتير ١٧١٦ والى الروسية فرنكين ١٧٩٠ .

ثم ترجمه سفرى ١٨٧٣ وتشميرسكى ١٨٤٥ وفاطمة زائدة١٨٦١ وادوارد مونيه ١٩٢٣ وماردروس ١٩٢٦ ولاميش ١٩٣١ .

٣) ـ ثلاثة عشر ترجمة الى الألمانية أشويكر ١٦١٦ ، ووافق نارثر ومكرلين وبوليسين وهننج وغريكوك وروكرت وغرم وغلد شميد ولنكى وارنلد وكلا مروت .

٤) الى اليونانية (نبتاكى) ١٨٨٠ .

٥) ـ الى اللاتينية (بلياندر) ١٥٤٣ وماردى ١٦٩٨

٦) ـ اللغة البولونية ١٨٥٨ (بونسيكفو) .

٧) ـ اللغة الايطالية ١٥٤٧ فى ثمان ترجمات : اريفابين وكلزه وينزيزى وفيو لانتى وبرانسى وفراقاسى ، وفروجز ومونلى .

٨) ـ اللغة البرتغالية ١٨٨٢ .

٩) ـ اللغة الأسبانية ١٨٤٤ دى رولس ، وأورتز ومرجيون دو وكاتو .

١٠) ـ اللغة العبرية ١٨٩٥ (ميكوبوبيرامتش) .

١١) ـ اللغة الهولندية خمس ترجمات بدأت ١٦٤١ (شويكر) وغلاسماتر كيزر وتولنس .

١٢) ـ اللغة الألبانية لمسلم اسمه ا . م . ق .

١٣) ـ اللغة العبرية : ١٨٥٧ روكندوف درفلين ورفلين .

١٤) ـ اللغة الهندوكية ١٩١٨ : ترجمة أحمد شاه .

١٥ ـ اللغة الدانيمركية ١٩١٩ : بدرسن وبول .

١٦) ـ اللغة الأرمنية ١٩٠٩ أمير خاينانز ولورنز وكوريتيان .

١٧) ـ اللغة البلغارية : توموف وسكولف ١٩٣٣ .

١٨) اللغة البنغالية : ١٣٤٩هـ . (رفيع الدين) وابن محمد عبد الحق ونعيم الدين وغولد ساك .

١٩) ـ اللغة الرومانية ـ ١٩١٢ أيسو بسكل .

٢٠) ـ اللغة المجرية : زدماير وكديون ١٨٥٤ وغرسون .

٢١) ـ اللغة اليابانية : سكاموتو .

٢٢) ـ اللغة البوهيمية : ١٩٢٥ فلى ، وينكل .

٢٣) ـ اللغة الصينية ٤ ترجمات أولها ١٩٣٥ باومن تشن تشنغ ولوين جود هوا جوجز .

٢٤) ـ اللغة السويدية ١٨٤٣ كروسنستولب وتورنبرج وزترستين .

٢٥) ـ اللغة الأفغانية ١٣١٩هـ .

٢٦) ـ اللغة البنجابية ١٢٩٧ هـ (حافظ محمد بارك الله) وهديه الله كالزى وشمس الدين البخارى وفيروز الدين .

٢٧) ـ اللغة السواحلية : ديل ١٩٢٣ .

٢٨) ـ اللغة السندية : عزيز المتعلوى ١٢٩٣هـ. ومحمد صديق عبد الرحمن .

٢٩) ـ اللغة الفواجدانية : ٤ ترجمات أولها ١٨٧٩

٣٠) ـ اللغة الجاوية ١٩٠٣ (ينادباه) .

٣

مُحَمَّد



محمـــد

ظلت شخصية النبي محمد صلى الله عليه وسلم هدفا لحملات عنيفه غير منصفة ، كجزء من المخطط المرسوم لمهاجمة الاسلام بمهاجمة نبيه وقد وقف كثير من الكتاب الغربيين أنفسهم على هذه المهمة ، محاولين البحث عن شبهات أو روايات ضعيفة لا تخاذها مصدرا لإثارة الاتهامات . من ذلك قصة الغرانيق ، والشبهات التي أثيرت حول عائشة وتأبير النحل .

وقد جرت هذه الاتهامات فيما يتصل بالوحي والاقتباس من تعاليم . الأديان الأخرى .

ومن هؤلاء مرجوليوت والقس كانول سل والأب لامنس الذى أفرد كتابا خاصا عنوانه «هل كان محمد صادقا» استغل فيه ما أمكن استغلاله من الشبهات المختلفة التي وردت فى كتب الشعوبية ومن كتابه «فاطمة» وقد كانت كتاباته على طريقة العكس المعروفة ، وهي قلب الحقائق كاملة فى مجال الاتهام ، وترديد اتهامات قديمة حرص على صناعتها رهبان القرون الوسطى .

* * *

وقد استطاعت سيرة «محمد صلى الله عليه وسلم» أن تنفذ الى نفوس الكثير من الباحثين المنصفين ، الذين اعترفوا بعظمة الرسول وقد روها ، وعارضوا ما وجه الى الرسول من اتهامات .

يقول كارليل «لسنا نعد محمدا هذا قط رجلا كاذبا متصنعا يتذرع بالحيل والوسائل الى بغية او يطمح الى درجة ملك او سلطان او غير ذلك من الحقائر والصغائر ، وما الرسالة التى اداها الاحق صراح وما كلمته الا صوت صادر من العالم المجهول ، كلا ما محمد بالكاذب ولا الملفق وانما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة ، فاذا هى شهاب قد اضاء العالم اجمع .

ويزعم المتعصبون ان محمدا لم يكن يريد بقيامه الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان . كلا وايم الله ، لقد كان فى فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار والفلوات المتوقد المقلتين العظيم النفس المملوء رحمة وخيرا وحنانا وبرا وحكمة وحجى واربه قد نهى عن المطمع الدنيوى ونواياه ليست فى طلب السلطة والجاه . وكيف وتلك نفس صافية كبيرة ورجل من الذين لايمكنهم الا أن يكونوا مخلصين جادين ، فبينما ترى اخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة اذترى محمدا لم يرض ان يلتفع بمألوف الاكاذيب ويتوشح بمتبع الاباطيل ، لقد كان منفردا بنفسه العظيمة وبحقائق الامور .

٢ ـ اما جيون فى كتابه اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها (٧٨٨)٦ فانه ينصف محمدا فى هذه النقطة بالذات ، نقطة الملك والسيادة بانشاء مملكة ، يقول :

«ان سموا إحساس محمد جعله يحتقر بهرج الملك ، وكان رسول الله يخضع نفسه لما تتطلبه حياة الاسرة من عمل ، فقد اوقد النار ، وكنس المنزل ، وحلب الشاة ، وخصف بيديه نعليه ، ورتق ثوبه لقد كان قانعا يأكل كما يأكل العربى والجندى ، وكان فى مناسبات قليلة يولم لرفاقه فى

سعة ، ولكن الأسابيع الكثيرة كانت تنقضى ولا يوقد فى بيته نار لطعام ، وكان يحرم الخمر كما يقضى بذلك الدين وكثيرا ما كان يخفف وطأة الجوع بكسرة من خبز الشعير .

٣ - ويصور «وليم موير» أسلوب محمد وبيانه فيقول : امتاز محمد بوضوح كلامه ويسر دينه وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول ولم يعهد التاريخ مصلحا أيقظ النفوس وأحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة فى زمن قصير كما فعل محمد .

٤ - وعنى دوزى فى بعض فصوله من كتاب ملوك الطوائف بالرد على ا ردده خصوم الاسلام فقال ص٤٠٥ «لو صح ما قاله القساوسة من أن حمدا نبي منافق كذاب فكيف نعلل انتصاره ؟ وما بال فتوحات أتباعه تترى وتتلو احداها الأخرى ؟ وما بال انتصاراتهم على الشعوب لا تقف عند حد ، وكيف لا يدل ذلك على معجزة هذا الرسول ؟ لقد كانوا يعتقدون أول أمرهم أن خذلان المسلمين سيتم بمعجزة قريبة ، فقد طالما سمعوا عن معجزات الكنيسة وانتظروا هذه المعجزة التى تخلص البلاد المسيحية من غزوات المسلمين ولكن انتظارهم هذه المعجزة قد طال وذهب أدراج الرياح وأعجب من ذلك أن معجزة أعظم قد حدثت وكانت معجزة اعظم مما كان يتوهمه القديسون انفسهم ، وأى معجزة اعظم واروع من ان نرى شعبا كان الى زمن قليل فى غاية من الخمول ثم ظهر الى الدنيا فجأة وظل يتقدم بسرعة لامثيل لهـا .

٥ - أما المؤرخ سيديو فقد حاول الرد على اتهام النبى بالقسوة أو الجبن مما جاء فى كتابات خصوم الاسلام فقال : من التجنى على حقائق التاريخ

ما كان من عزو بعض الكتاب الى محمد القسوة والجبن ، فقد نسى هؤلاء أن محمدا لم يأل جهدا فى الغاء عادة الثأر الموروثة الكريهة التى كانت خطوة ، لدى العرب ، كخطوة المبارزات بأوربة فيما مضى . وكأن اولئك الكتاب لم يقرؤا آيات القرآن التى قضى محمد فيها على عادة الوأد الفظيعة ، وكأنهم لم يفكروا فى العفو الكريم الذى أنعم به على ألد أعدائه بعد فتح مكة ، ولا فى الرحمة التى حبا بها كثيرا من القبائل عند ممارسة قواعد الحرب الشاقة ، ولا الى ما أبداه من أسف على بعض الأحكام المبتسرة ، وكأنهم لم يعلموا أن محمدا لم يسئ استعمال ما اتفق له من السلطان العظيم ، قضاء لشهوة القسوة الدنيئة - وأنه لم يأل جهدا - فى الغالب - فى تقويم من يجور من أصحابه وكل يعلم أنه رفض بعد غزوة بدر - رأى عمر بن الخطاب - فى قتل الأسرى وأنه عند ما حل وقت مجازاة بنى قريظة ترك الحكم فى مصيرهم لحليفهم القديم سعد بن معاذ . وأنه صفح عن قاتل عمه حمزة ، وأنه لم يرفض قط ما طلب اليه من اللطف والسماح ، وليس بمجهول أن خالد ابن الوليد - الذى كان من أشجع قواده - لم يستطع أن يرعوى - بعد اسلامه - من روح القسوة والصولة التى كانت تلازمه فى زمن الجاهلية فلاحت له الفرصة بأن يثأر لقريبه القتيل فاثخن فى بنى خزيمة ، فأجمع المسلمون على استفظاع عمله ، فلما نبئ محمد بما صنع خالد ، أسرع فى ذمه جهارا فرفع يديه الى السماء قائلا : اللهم انى أبرأ اليك مما صنع خالد ...

٦ - ودافع المستشرق الانجليزى «بودلى» عن الزعم القائل بأن محمدا سرق ما فى الانجيل من تعاليم فقال «الزعم بأنه قد سرق الانجيل زعم باطل فما رآه أبدا والقول باطلاعه على ترجمة الانجيل الناقصة التى قام بها ورقة

ابن نوفل لا يضع أمامه انجيلا كاملا ليراه وحتى هذه الترجمة لم يرها فان أول ترجمة عربية رسمية للعهدين القديم والجديد ظهرت بعد وفاة محمد بقرون ... »

٧ - ولقد وجد «برنارد شو» فى شخصية النبى ما دعاه لأن يصفه بمنقذ الانسانية .

فقال : لقد عمد رجال الاكليروس فى العصور الوسطى الى تصوير الاسلام فى أحلك الألوان ، وذلك بسبب الجهل أو بسبب التعصب الذميم ، والواقع أنهم كانوا يسرفون فى كراهية محمد وكراهية دينه ويعدونه خصما للمسيح أما أنا فأرى واجبا أن يدعى محمد منقذ الانسانية ، واعتقد أن رجلا مثله اذا تولى زعامة العالم الحديث نجح فى حل مشكلاته وأحل فى العالم السلام والسعادة وما أشد حاجة العالم اليوم اليهما » ..

٨ - وقد أعجب تولستوى بشخصية محمد وعبر عن ذلك حين قال «لاريب أن النبى محمدا من عظام الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ويكفيه فخرا أنه هدى أمة برمتها الى نور الحق ، وجعلها تخضع للسكينة والسلام وتفضل عيشة الزهد ومنعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية وفتح لها طريق الرقى والمدنية وهو عمل عظيم لايقوم به الا شخص أوتى قوة ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والاكرام .

٩ - وقد أعلن «أميل درمنجم» فى كتابه حياة محمد «أنه لا يوجد واحد فى الدنيا أمكنه أن ينكر وجود محمد ، ولكن وجد من ينكرون بعض ما جاء فى ترجمة محمد فى الكتب العربية ، وكم يكون مؤثرا ومفيدا التلاقى مع رجل

من الرجال الذين يقتدى بهم جانب عظيم من الانسانية ، أما من الجهة الأوربية فقد كانت الأوهام والعداوات الدنيئة تحول دون درس حقيقى علمى لعظمة منشئ[1] الاسلام » .

ويضيف جون سيمون الى ذلك قوله «ان محمدا قد رفع أعلام التمدن» أما الدكتور مار دوس المستشرق الفرنسي فيرى أن أكثر الكتاب ارتيابا وشكا قد خضعوا لسلطان تأثير محمد أما «جوته» فعنده أن أهل أوربا لم يصلوا بعد الى ما وصل اليه محمد يقول «اننا ـ أى أهل أوربا ـ بجميع مناهجنا لم نصل الى أبعد ما وصل اليه محمد وسوف لا يتقدم عليه أحد» ..

١٠ ـ أن الصورة التى يرسمها «فارس الخورى» للنبى فهو أن محمدا أعظم عظماء العالم : «لم يجد الدهر بعد بمثله ، والدين الذى جاء به أوفى الأديان ، وأكملها ويقول «ان محمدا أودع شريعته المطهرة أربعة آلاف مسألة علمية وإجتماعية وتشريعية ، ولم يسع علماء القانون المنصفون الا الاعتراف بفضل الشريعة التى دعا الناس اليها باسم الله وبأنها متفقة مع العلم مطابقة لأرقى النظم ، ان محمدا الذى يحتفلون به أعظم عظماء الارض ، سابقهم ولاحقهم ، فقد استطاع توحيد العرب بعد شتاتهم وأنشأ منهم أمة موحدة فتحت العالم المعروف يومئذ وجاء لها بأعظم ديانة عينت للناس حقوقهم وواجباتهم وأصول تعاملهم على أسس من أرقى دساتير العالم وأكملها» ...

١١ ـ أما الدكتورة لورا فنيشيا فاليرى الكاتبة الايطالية فتدافع عن النبى بحماس وإيمان وصدق فتقول : قام أعداء الإسلام الألداء الذين أعماهم الحقد والتعصب واتهموا رسول الله ، ذلك الرجل النبيل الذى كان ينظر

---

(١) من الخطأ اعتبار النبى محمد صلى الله عليه وسلم منشىء الاسلام

اليه قبل الرسالة نظرة اكبار واجلال من جميع مواطنيه لما تحلى به من الأمانة والسجايا الكريمة ، وكانت هذه التهمة التى رموه بها مما لا يقبله عقل ، ولا يمكن أن يسلم به عاقل فضلا عن أنها لا تقوم على أى أساس وهى تهمة الغش والخداع وليت شعرى كيف أن هؤلاء الناس لم يسألوا أنفسهم اذا كان النبي فى الحقيقة كاذبا فكيف اجترأ على أن يوجه فى القرآن الى .. الكذابين ، والمخادعين أشد عبارات الذم وأقساها وكيف توعدهم بالنار وسوء العذاب واذا كان كاذبا فى دعوته كما يفترون فكيف صمد للمقاومة أكثر من عشر سنين وهو فى مكة احتمل فى أثنائها الشئ الكثير من صنوف الاضطهاد والالام وهو ذلك الرجل الوديع الهادئ الطباع ، وكيف تهيأ له أن ينحاز اليــه طواعية واختيارا بل وبمنتهى التحمس جماعات كبيرة من رجالات قريش ونبلائهم وأن ينضووا تحت لوائه مع غيرهم من السوقه والعبيد .

أما تهمة القسوة التى يوجهونها إليه فمن السهل دفعها ، لأن محمدا الذى كان على رأس حكومة ويتولى الدفاع عن حياة الشعب وحريته كان يحاكم الخارجين على القانون بصرامة وشدة اقتضهما ظروف البيئة التى كان يعيش فيهــا .

ولقد كان محمد ــ كرسول يدعو الى الله ــ رجلا رحيما لين الجانب حتى لاعدائه الشخصيين ، وبذلك أجتمعت فيه فضيلتان كلتاهما أكبر الفضائل التى يتصورها العقل البشرى وهما الرحمة والعدالة .

وبحسبه أن الحرب التى هى أقصى ضرورات الحياة الانسانية قد صارت بفضله أقل وحشية وقسوة ، اذ أنه كان يطلب الى جنوده الا يقتلوا شيخا ولا امرأة ولا طفلا ، ولا يهدموا بيوتا لم تتخذ كمعاقل حربية .

وقد أراد أعداءُ الاسلام أن يظهروا النبي في صورة رجل شهواني إباحي بأن اتخذوا من زيجاته المتعددة حجة لاتهامه بضعف خلقي لا يتفق ومركز النبوة ولكن فاتهم أمر هام لم يحسبوا له حسابا ، وهو أن النبي أيام فتوته وعنفوان شبابه لم يتزوج الا من امرأة واحدة ، ولم يتزوج من غيرها حتى ماتت مع أنه كان يعيش بين قوم سادت فيهم كثرة الطلاق والزواج وكان يندر أن يقتصر الرجل منهم على زوجة واحدة ، ولما فقدت وكانت سِنُّهُ حين ذاك خمسين سنة تزوج من أخرى ، كما عقد زيجاته المختلفة التي كانت في أغلب الأحيان لدواع اجتماعية أوسياسية لأنه كان يريد بهذه الطريقة أن يكتسب الى صفه رجالا اتقياءَ أو نساء تقيات ويرتبط بروابط المصاهرة بأسر قوية ...

وكان كل ذلك بقصد نشر الاسلام[1] .

١٢ – ويدافع الكونت هنرى دى كاسترى عن اتهام النبي بتأليف القرآن . ويقول «وكيف يعقل أن النبي ألف هذا الكتاب باللغة الفصحى مع أنها في الأزمان الوسطى كاللغة اللاتينية ما كان يعقلها الا القوم الصالحون ، وقد شاهدنا أناسا وما كان أكثرهم أميين قاموا في أمة العرب وادعوا النبوة منهم مسيلمة الذى زعم أنه قرين محمد ، أتى بسور سخر منها العرب ولو لم يكن في القرآن غير بهاء معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك أن يستولى على الاقطار ويأخذ بمجامع القلوب .

أتى محمد بالقرآن دليلا على صدق رسالته وهو لا يزال الى يومنا هذا

---

(١) ك \ محاسن الاسلام : طبع يافا ١٩٣٤ ترجمة طه فوزى

سرا من الأسرار التي تعذر فك طلاسمها ولن يسبر غور هذا السر المكنون الامن يصدق بأنه منزل من الله ، اللهم الا اذا اعتمدنا على قول ممجدى الدين المسيحى مما كنا نرتاح اليه أيام شبيبتنا (وهو يرجع الى أن القرآن تأليف فاتح أراد تأييد سلطته فجمع من كتب اليهود والمسيحيين قانونا أودعه بعض قواعد الأدب والدين .

وأضاف إليه قصص الوقائع العظيمة لتأييد رسالته .

وعلى كل حال أى سواء توصلنا الى معرفة حقيقة القرآن أم لا فلا ينكر أحد أن مظهر محمد كان مظهر نبوة بالفعل بقطع النظر عن صدق تلك النبوة وعدم صدقها ، لأن النبوة من حيث هى عبارة عن قيام رجل يملى على الناس أمر ربه ويعتقد حقا أن ما يقوله آت من عند الله .

ومحمد كما قال (ايوالد) عن أنبياء بنى اسرائيل أعتقد أن روحا من الله استولت على لبه ، فلم يشعر بأن له فكرا خاصا ، بل انه أوتيه من عند ربه ، واختفت فى نظره أنانيته ولم يعد يسمع غير صوت ذات فوق ذاته ، ومن ذلك الحين أخذت شفتاه تنطق بألفاظ. بعضها أشد قوة وأبعد مرمى من بعض ، والأفكار تتدفق من فمه على الدوام ، وكانت تلك الانفعالات تظهر على وجهه فظن بعضهم أن به جنة ، وهو رأى باطل لأنه بدأ رسالته بعد الأربعين ولم يشاهد عليه قبل ذلك أى اعتلال فى الجسم او اضطراب فى القوة المادية ....

ويقول : اذن فليس محمد من المبتدعين ، ولا من المنتحلين كتابهم ، وليس هو نبي سلاب كما يقول (سايوس) نعم ، قد نرى تشابها بين القرآن والتوراة فى بعض المواضع الا أن سببه ميسور المعرفة ، ذلك أن محمدا كان يلصق

ديانة الاسلام بالديانتين المسيحية واليهودية (كذا) ، وحينئذ لاعجب إذا تشابهت تلك الكتب فى بعض المواضع ، خصوصا إذا لا حظنا أن القرآن جاء ليتممها كما أن محمدا هو خاتم الأنبياء ...[1] .

* * *

ومن جماع هذه الآراء تبدو صورة محمد صلى الله عليه وسلم واضحة فى نفوس المنصفين من الغربيين على نحو قريب جدا مما هى فى نفوس المسلمين ولا شك أن مصدر هذا النصر هو قوة الاسلام الذاتية فى فرض تعاليمه وتاريخه وأفكاره على الفكر العالمى وتاثيره فيه ، بالرغم من كل المحاولات التى اتخذت لتمزيق صفحته ، وتشويه ملامحه فقد استطاع أن يحفر تيارا قويا على أيدى مجموعة من الأعلام من رجال الفكر والأدب والبحث العلمى .

(١) الاسلام : خواطر وسوانح : تاليف هنرى دى كاسترى : ترجمة احمد فتحى زغلول ــ عام ١٩١١

(٥)

الإسلام والأديان

عالم الغرب هذا عالم له مفاهيمه وثقافته وفكره الذى تطبعه مقومات خاصة يستمدها من الثقافة الاغريقية والحضارة الرومانية أساسا ، والذى يرى أن المسيحية بالنسبة له شئ دخيل جاءه من الشرق ، ولذلك فانه لم يلبث أن طواها فى بوتقته فأصبحت له «مسيحيته الغربية» التى تختلف عن المسيحية الأصلية وعن مفاهيمها فى الشرق ، وهذا الغرب الذى يفهم عن نفسه أنه سيد هذا الكوكب ، وحاكمه والمسيطر عليه بالحضارة والاستعمار ، فى يده كل مقاليد المدنية والفكر والثقافة وهو المسيطر على غيره من شعوب العالم ، الجنس الأبيض ذى المحتد الممتاز وريث الآرية ، والسكسونية والجرمانية واللاتينية .

وفى ظل هذه المفاهيم المستعلية على الشعوب الملونة والأجناس السامية والحامية وعلى الشرق بالذات وعلى غير المسيحية من أديان ، ومن خلال نظرات منحرفة عنيفة تصور الاسلام والمسلمين بصورة الغزاة الذين اقتحموا النفوذ المسيحى الأوربى واكتسحوا الدولة الرومانية ثم اقتحموا أوربا وسيطروا على الأندلس ومدوا نفوذهم إلى فرنسا وإيطاليا ثم إلى البلقان حتى نهر اللوار ، فى ظل هذه المفاهيم كانت حقيقة الاسلام مليئة بالضباب ، مجللة بالسواد فى نظر المثقفين الغربيين وقد زادتها قوى الاستعمار والكنيسة ولها سلطانها على الصحافة والتأليف ومناهج التعليم - زادتها قوة على أن تفهم عن الاسلام غير جوهره وخلاف حقيقته .

غير أن الاسلام بذاتيته القوية ومن خلال هذه الصورة المضيئة التي وصلت إلى أهل الغرب ، استطاع أن ينفذ بأضوائه القوية إلى بعض النفوس والقلوب فيهزها هزا ، ويدفعها الى دنيا جديدة من الفكر والنظر ، ومن هنا استطاع أن يحرز هذه الانتصارات الضخمة بكسب هذه المجموعة من أعلام الرأى الى صفه فيحول بعض المتعصبين ضده الى أن يحسنوا الرأى فيه ، وينقل أفرادا ممتازين الى عقيدة الاسلام ، ويضم عشرات من المنصفين الى الثقة به كحقيقة كبرى ، وكقوة حية فيرى فيه أغلبهم أنه سناد الحضارة ، وأنه منقذها ، ويتنبأ له الكثيرون بأنه سيكون عقيدة المستقبل وضياء الغد ومنقذ الانسانية من البلبلة والاضطراب .

ونحن اذا استعرضنا حياة هؤلاء الكتاب الذين أنصفوا الاسلام نعجب ، فهم لم يكونوا فى حاجة الى شهرة أو غنى أو يطمعون فى مغنم حين أعلنوا صيحتهم ، بل ان بعضهم قد أعلن هذه الصيحة فى وقت مبكر جدا ، عندما كان الغرب قوى الحملة على الاسلام عنيف التعصب ضده ، فهنرى دى كاسترى يكتب كتابه عن (الاسلام) عام ١٨٩٦ وجوستاف لوبون يقول رأيه عام ١٨٨٤ وكارليل يعلن عظمة محمد فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر يوم كانت أوربا تشب نار الحملة على الاديان وتهاجم الاسلام .

ثم يولى هؤلاء الكتاب الذين آمنوا بالاسلام ايمانا فكريا ، غير أن هناك مجموعة أخرى آمنت بالاسلام ايمانا حقيقيا واعتنقته فعلا ، ولها مؤلفات وكتابات تكشف فيها عن حقيقة التحول الخطير الذى نقلها إلى الاسلام وفى مقدمة هؤلاء خالد شلدريك وهارى هبيكل واللورد هدلى وعبد الله كوليام

والدكتورة لورافنيشيا فاليرى وليوبولد فابس . وهم بين ايطالى وانجليزى وفرنسى .

والدكتور خالد شلدريك دخـل الاسلام (يوليو ١٩٠٣) نتيجـة بحثه الشخصى . وكان الى ذلك الوقت لم يقرأ كتابا من مؤلفات المسلمين ولا التقى بمسلم ، يقول «كنت أطالع ما يكتب من النبذ اللاهوتية عن الدين المسيحى ووقع فى يدى كتيب عن الاسلام ألف من وجة النظر المسيحية فالله الرحمن الرحيم هو الذى هدانى ، وفى هذه الفترة توليت التدريس فى مدارس مختلفة ، فكنت أبث الطلبة ما اقتنعت به عن الاسلام ، وأول مسلم اتصلت به هو الشيخ عبد الله كوليام الذى كان قائما بالدعوة فى «ليفربول» وفى عام ١٩٠٥ قابلت مسلما هنديا أسس جمعية الجامعة الاسلامية فى لندن» .

وقد فقد باسلامه كل ما كان يملك من ثروة فقد حرمه أهله حقه وكان عليه أن يبدأ الكفاح فى سبيل المعيشة وله بعد ذلك مواقفه بالنسبة لحادث دنشواى (١٩٠٦) ولاعتداء .. الايطاليين على طرابلس الغرب ١٩١١ .

وأتيح له أن يقوم برحلة طويلة الى بورما وسيلان وسنغافورة والصين واليابان والفيلبيين فى سبيل نشر الاسلام والوقوف على حال المسلمين وقد زار القاهرة والقى بها محاضرة[1] . وله أبحاث فى مجلة (Real Islam) التى تصدر فى لندن .

أما اللورد هدلى فقد روى قصة اسلامه كاملة فى الفصل التالى وقد زار مصر (يناير ١٩٣٠) والقى عديداً من المحاضرات وصدر باسمه كتاببعنوان

---

(١) الفتح ١٣ صفر ١٣٥٧ م ١٢ العدد ٥٥١

(ايقاظ الغرب للاسلام) عام ١٩٢٢ وهو صاحب مجلة (The Islamic Revieo) بجامع ووكنج وكان يسمى نفسه «سيف الرحمن رحمة الله فاروق» وقد سافر الى الحجاز فى عام ١٩٢٣ ونشرت له المنار سنة ١٩١٣ (م٧) كما نشرت له معظم المجلات المصرية مثل كل شئ (١٢ يناير ١٩٣٠) وقد كان من أغنى البريطانيين ومن أعلى أسرهم حسبا ، يعمل مهندسا بحريا ويمتلك عدة ألوف من الأفدنة .

ولقد كان اللورد هدلى يطمع فى أن ينشر الاسلام فى بريطانيا بالذات وبذل فى سبيل ذلك كثيرا من جهده .

أما ناصر الدين دنيه (اتيان دينيته) «فهو من كبار أهل الفن ورجال التصوير الفرنسيين وصاحب اللوحات النفيسة القيمة التى تزدان بها جدران المعارض الفنية وله صورة شهيرة هى غداة رمضان) .

ويتصف بالقدرة على رسم الصحراء وتصوير حياة الصحراء كما تدل على دقة التعبير عن الحالات النفسية المختلفة . امتاز بتخصيصه فى تصوير الحياة الاسلامية وبالأخص فى بلاد الجزائر حيث اتخذ له فيها موطنا فى (بوسعادة)

وله كتاب حياة العرب ، والسراب ، حياة الصحراء كتاب ربيع القلوب ، والشرق كما يراه الغرب .

وفى سنة ١٩٢٧ أعلن اسلامه رسميا بالجامع الجديد بمدينة الجزائر فى اجتماع حافل بمفتى الجزائر ووزير العدلية التونسية أشهد الناس على أنه يدين بالاسلام من عشرات السنين وإن لم يجهر به إلا اليوم ، ويريد أن يدفنوه فى قبره مسلما حنيفيا لم يتخذ الاسلام إلا بعد تحقيق وتدقيق .

وليست هذه الصور التى نقدمها للذين أسلموا الا نماذج تكشف عن عظمة الاسلام الذاتية وقدرته على فتح الطريق أمام حقائقه وقيمه ومقاصده فى كل بيئة .

* * *

وأمامى صور كثيرة تدل على مدى ما اهتزت النفوس لكلمة الاسلام ودعوته فالفيلسوف «أوغست كونت»(١) الذى كانت دعوته ماديه خالصة : يهتز عند ما يرى الصلاة ، يقول : لا يسعنى عند ما أنظر الى فريق من المسلمين وهم يؤدون مناسكهم وفروض صلاتهم بشكل جماعة متكافئة فى احد مساجد (فاس) والسكون والايمان العذب يجثمان فوق رؤوسهم الا أن أكبر عظمة هذا الدين الذى عرف كيف يصقل الأذهان ويهذب النفوس ويشرق القلوب ويقوم الأخلاق ويقضى على تمرد الروح ويحوله إلى خشوع عميق وتواضع ملؤه الوجد والخضوع ، ولقد اشتهيت أن أكون يوما أحد أفراد هذه الأفواج الساجدة لربها فأراحت ضمائرها بهذا النوع البرئ من العبادة المخلصة .

ولكنى لا أدرى لماذا لا أكون الا ذلك المتمرد ، ضل ولم يهتد ، وما زال يتوغل فى الاعماق .

ونرى مسيو ريمون الرحالة المشهور فى أثناء طوافه فى مجاهل افريقيا يقول انه لم يكن يأمن على نفسه ولا على رجاله الا عند المسلمين فكان يصادفه منهم أنسا ولطفا وحسن ضيافه وفى رسالة مطولة عن المسلمين فى المجاهل قال «ان الاسلام انتشر كثيرا فى جهات افريقيا واسيا وكان انتشاره طبيعيا

(١) نقلا عن كتاب بين الديانات والحضارات (ص ٢١)

لأن المسلمين كانوا قدوة حسنة لسائر جيرانهم فلحقوا بهم وحذوا حذوهم وبالتدريج عرفوا ما الاسلام فاعتنقوه وصاروا مسلمين .

بل ان «غليوم» عاهل المانيا العظيم قد صرح فى ٩ نوفمبر ١٨٩٨ وسجلته مختلف صحف العالم بعد زيارة لبيت المقدس قوله : لو لم يكن لى دين لكنت قد اعتنقت حتما الدين الاسلامى» وربما كان تصريحه سياسيا ولكنه على أى حال يحمل معنى الهيبة الواضحة للاسلام .

وهذا نموذج آخر : يصل إلى القاهرة بين حين وآخر رجل وزوجته ويعتنقان الاسلام ورجال من مختلف أنحاء العالم يفعلون ذلك .

ولكن مستر لومكس وزوجته ألن يونافيسى وهما أستاذان بجامعة كولومبيا قالا[1] :

«اننا كنا نقرأ كثيرا فى القرآن الكريم (ترجمة مولاى محمد على) وكانت معانيه تلذ لنا كثيرا ، وكنا نحاول أن نطبقها على الحياة الفطرية فكانت محاولاتنا تنتهى دائما بالنجاح ، وقد أخذ بقلوبنا وأثر فينا التأثير كله ذلك المعنى الجميل الذى تضمنته تلك الآيات الكريمة التى تقول : قل هو الله احد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، فهذه السورة هى التى جعلتنا نسرع فندين بالاسلام ، ولقد رفضنا أن نعمل مع غير المسلمين فى بلادنا وآثرنا أن نعيش وأولادنا كما يشاء الله .

* * *

(١) الاهرام : ٤\٣\١٩٣١

وتكشف الصور المختلفة لاسلام هؤلاء كيف ان بساطة الاسلام هى ابرز معالمه ، وترى كيف تبدو نصاعة مقاصده عند المقارنة بينه وبين الأديان الأخرى واضحة غاية فى الوضوح وأبرز هذه المقاصد انفتاحه على الحياة ، وبعده عن عقد التسلط المختلفة .

عبد الله كوليام

منذ ستين عاما أشار على الأطباءُ براحه أمضيها فى جبل طارق ، فلما سرت إلى هناك ركبت سفينة إلى طنجة لمشاهدة البلاد المراكشية ، واتفق أننى لما صعدت السفينة رأيت فيها بعض الحجاج من أهل المغرب يغترفون الماء بالدلو من البحر ويتطهرون مبالغين فى النظافة ، ثم أقلعت السفينة وما كادت تغادر الميناء حتى رأيت هؤلاء الجماعة قد اصطفوا للصلاة صفوفا جميلة وجعلوا يصلون معا بخشوع وطمأنينة ، غير مكترثين بتمايل السفينة واضطراب الريح . ولقد أثر فى نفسى ما قرأته على وجوههم من صدق الايمان فأثارت حالتهم هذه الاهتمام الزائد عندى فى أن أستزيدهم عن الدين الذى يدينون به ، وما عتمت أن تعرفت بمسلم يتكلم الانكليزية فكان يلازمنى مدة إقامتى فى طنجة ، ولا سيما بعد ما شعر منى بالرغبة فى معرفة المبادئ التى يدعو الاسلام اليها وعولت على أن أقرأ الاسلام فى كتبه ، وان اقرأ ما كتبه عنه العلماءُ المنصفون ، فقرأت ترجمة (سل) للقرآن الكريم وكتاب الأبطال لكارليل وما خرجت من طنجة الا وأنا مستسلم للاسلام ، مذعن لقوته ، مقر بأنه حق ، وأنه خير الأديان .

ولما رجعت إلى انجلترا كان شغلى الشاغل التفكير فى الأسلوب الذى يجب أن أتبعه لأدعو الناس إلى الإسلام وأقنعهم به وأحملهم على الايمان به ،وكنت أعلم أن ماشحنه أعداءُ هذه الهداية فى رءُوس الأوربيين عن الاسلام سيحول

بينى وبين التفاهم مع الجمهور بطريق المحاضرات أو النشر لأن جمهور الانجليز اذا حدثتهم عن الاسلام يظنون أنك تحدثهم عن دين وثنى والصحف لاتفتح صدرها لمثل هذه الدعوة .

ثم بدا لى أن أطرق بابا غير مباشر ، فالقيت محاضرة فى جمعية النهى عن المسكرات موضوعها (المتعصبون والتعصب) تحدثت فيها عن الشخصيات البارزة فى علم الاختراع مثل ستفنسون مكتشف القوة البخارية ويلبرفورس المجاهد فى سبيل تحرر الرقيق وأتيت على مجمل ما لاقاه كل هؤلاء من المقاومة والاضطهاد والسخرية .

ثم أردفت بذكر محمد (صلى الله عليه وسلم) فقلت إن هذا المصلح الكبير جاء البشر برسالة ودعا الناس إلى الخير ومع ذلك فقد ناله من الأذى والاضطهاد ما يجده كل مصلح عظيم يعمل على خير الانسانية فلما تبين البشر فضله دخلوا فى دينه أفواجا وما زالوا كذلك حتى بلغوا الآن مئات الملايين فى جميع أطراف المعمورة ، ثم ذكرت شيئا من آداب الاسلام والمبادئ والتعاليم التى دعا اليها النبى .

فلما حصلت عليها الصحف ، أسرع القسس إلى مديرى الصحف وقالوا ان المحاضرة بها دسائس ، وانها متضمنة الدعوة الى دين وثنى ، فوافق مديرو الصحف على حذف ما فى المحاضرة خاصا بمحمد ونشروا الباقى .

فأنذرت الصحف بالمحاكمة أمام القضاء على تشويه محاضرتى ، فعادوا ونشروا المحاضرة كاملة ، وكان لذلك تأثير عظيم لكثرة الأيدى التى تناولت تلك الصحف ، ثم فكرت بعد النجاح أن يكون فى بلدى (ليفربول) مكان

تقام فيه الشعائر الاسلامية وما كدنا نفتح هذا البيت حتى صار القسس يدسون لنا الأشرار والمتحمسين من صغار العقول ، ومما أوذينا به أن أولئك الاشرار كانوا يلقون الأقذار على المصلين وكانوا يرجمون المؤذن بالحجارة ، وينثرون الزجاج المكسور على سجادات الصلاة .

ودخلت المسجد مرة ألقى محاضرة فى تفسير آية من القرآن الشريف فوجدت قد سبقنا إلى المسجد جماعة قرأت فى وجوههم أنها وجوه مريبة ، فلم أبال بهم وتلوت آية القرآن الشريف، وشرعت أفسرها وأستنتج منها العظات والعبر ، فلما انتهيت من المحاضرة قام أحدهم واخرج من جيبه حجارة وألقاها على الأرض وقال لأصحابه ، من كان منكم يريد أن يرجم المسلمين بالحجارة التى معه فأنا صرت مسلما فارجمونى بها . فألقوها هم أيضا على الأرض وأعلنوا إسلامهم ، وهذا الرجل الذى كان رئيسا لهم ما لبث أن أصبح عضدى الأيمن ولازمنى فى كل رحلاتى التى قمت بها للدعوة إلى الاسلام ، وعلى يدى أسلمت سكرتيرة جمعية منع المسكرات فى (بير كنهيد) وسميت (فاطمة) وأسلم على يدها شقيقاتها وزوجها .

والآن فإن البعض يعتقدون أن اللورد (هدلى) هو أول لورد انجليزى دخل فى الاسلام ، وليس هذا صحيحا ، فقد دخل الاسلام مثله لورد (ستنلى أولدرلى) الذى كان يحب ان يدعى باسم عبد الرحمن افندى) وكان يأتى مسجدنا فيصلى مع إخواننا رغم ما بينهم وبينه من التفاوت العظيم فى المنزلة الاجتماعية[1] .

---

(١) الحديقة ص ٢٠٠ جـ ٧

الدكتورة لورا فنيشا فاليرى[1]

هدأت فى أيامنا هذه نار الحقد والكراهية التى كانت تتأجج فى صدور الباحثين من الأوربيين فى الشئون الاسلامية طوال سنى القرون الوسطى وفى جانب كبير من سنى العصر الحاضر ، ولم يعد نبى العرب فى نظر أحد ممن يتصدون لهذه الأبحاث ، ذلك المستحق لأحط الشتائم ، وأقذع عبارات السباب ، حيث ظهرت فى العصر الأخير أبحاث ادعى أصحابها التزام الحياد ، وقد ألقت مصنفاتهم هذه ضوءا جديدا على أصول ديانة جديدة قلبت العالم بأسره رأسا على عقب ، على أن المسلم القوى الايمان المخلص لربه ورسوله ، والذى يرى فى الاسلام ينبوع سعادة أبدية فى الحياة الدنيا وفى الاخرة لم يصل إلينا صوته إلا ضعيفا جدا ، إذ أن آراء مشاهير كتاب الاسلام التى كتبت بلغات لا يقرؤها إلا نفر قليل من الغربيين ظلت مجهولة بوجه عام فى العالم الأوربى . ولا نستطيع فهم الروح الصحيحة لدين من الأديان ، إذا لم نتبين جيدا آراء الذين يدينون به وندرك الشعور الذى يحملونه بين جوانحهم .

ولما كانت النتائج التى وصل اليها الباحثون الغربيون غير متوفرة فيها الغيرة الصادقة الواجبة كما أنها قائمة غالبا على أفكار لا يمكن بأية حال من الأحوال أن يسلم بِصِحَّتِهَا مُسْلِمٌ مخلص لعقيدته فهى لهذه الأسباب

(١) من كتابها محاسن الاسلام : ترجمة محمد فوزى

لا تصلح لأن تكون أساسا لكتابة يقصد بها اطلاع الغربيين على كنه الديانة الاسلامية والشريعة السمحاء ، حتى يقدروا عظمتها ويعرفوا أصولها ويشعروا بقوة إقناعها ، ويلموا بما فيها من عوامل تقدم ونهوض .

لم يشهد التاريخ حادثا مماثلا لهذا الحادث الخطير لأن السرعة العظيمة التى أتم بها الاسلام فتوحاته كان لها أبلغ الأثر فى حياته إذ أنه بعد أن كان عقيدة نفر من المتحمسين أصبح ديانة لعدة ملايين من الناس وليت شعرى كيف تأتى لهؤلاء المجاهدين غير المدربين أن ينتصروا على شعوب تفوقهم مدنية وثروة وتزيد عليهم دربة ومراسا للحروب ، وكيف استطاعوا أن يبسطوا سلطانهم على بلاد متسعة الأرجاء وأن يحتفظوا بفتوحاتهم هذه ويوطدوا هذا الصرح العظيم الذى ثبت أمام حروب شديدة استمرت قرونا عديدة فلم تقو على هدمه ونقض بنيانه الشامخ المتين ، وكيف أمكن هذا الدين أن يوطد فى نفوس أولئك المهتدين الحديثى الايمان أمتن الأسس وكيف تسنى له أن يحتفظ بحيوته العظيمة التى لم تعرف مثلها ديانة أخرى من قبل حتى بعد ثلاثة عشر قرنا خلت بعد حياة مؤسسه .

وبعد فكيف لم ينقطع الاسلام عن الانتشار والذيوع فى إفريقيا وآسيا رغم حرية الاعتقاد التى يتمتع بها غير المسلمين فى البلاد الاسلامية ورغما عن عدم وجود نظام للدعاية الاسلامية وهو الآن لا يسبقه سيف الفاتحين بل على النقيض من ذلك فإن البلاد التى كانت ترفرف فوقها رايته أصبحت محكومة برجال ذوى عقائد أخرى ولم يستطيعوا مع ذلك أن يصرفوا رعاياهم عنه أو يعتقلوه من قلوبهم .

فأية قوه عجيبة تنطوى عليها هذه الديانة وما هي قوة الاقناع التي تستند إليها وفى أية عروق للنفس البشرية تجد غذاءها وقوام حياتها .

لقد رفع الاسلام النقاب الذى أسدله الآخرون على الكتب المقدسة ليحولوا دون فهمها وأنب أولئك الذين لا يعرفون من أمر هذه الكتب إلا قراءتها وشبه الذين لم يفهموا روح التوراة ومراميها ولم يحسنوا القيام على ذلك بالحمار يحمل اسفارا ...

وليس للمسلمين مجامع مقدسة ومجالس (سينودس) خاصة تقرر لهم نصوصا تكون لهم بمثابة أصول للديانة الصحيحة ، ولم يعترف الاسلام لكائن من كان من أتباعه بحق الحكم على إيمان أحد من إخوانه فى الدين ...

وبينما فرضت الأديان الأخرى على أتباعها مجموعة ضخمة من المعتقدات العسيرة الفهم فإن الاسلام قد تجلت فيه البساطة والنورانية ..

وكان ذلك مدعاة لسرعة انتشاره فى أيام الفتح الأولى بين الشعوب التى كانت فى اضطراب نفسانى عميق نظرا لما كان يساور نفوسها من الشكوك فى عقائدها الدينية ، وهذا هو نفس السبب فى استمرار انتشاره فى هذه الأيام بين أبناء الأمم غير المتعلمة فى آسيا وإفريقيا إذ أنه نجح فى التغلغل إلى نفوسهم الساذجة وعقولهم الفطرية .

إن الناس لتتلهف على دين يتفق وحاجاتهم ومصالحهم الدنيوية ولا يكون قاصرا على ارضاء مشاعرهم وإحساساتهم ويريدون ان يكون هذا الدين وسيلة لأمنهم وطمأنينتهم وسعادتهم وليس هناك من دين تتوفر فيه هذه المزايا كلها بشكل رائع سوى دين الاسلام إذ أنه ليس مجرد دين فحسب بل ان

فيه حياة للناس لأنه يعلمهم كيف يحسنون التفكير والكلام ويحضهم على فعل الخير وصالح الأعمال ولذلك سرعان ما شق طريقه الى القلوب والأفهام .

وسيعود المسلمون مرة ثانية إلى الارتواء من منهلهم العذب الصافى وهو القرآن الذى لم تمسسه يد عدو ولا حبيب ولا عاقل ولا جاهل ، ولكنه بقى بدون تغيير ولا تبديل فى خلال العصور الماضية كما أوحى الله به إلى رسوله النبي الأمى خاتم الأنبياء والمرسلين .

لورد هدلى

إننى باعلان اسلامى لم أحد مطلقا عما أعتقدته منذ عشرين سنة إن عدم تسامح المتمسكين بالنصرانية كان أكبر سبب فى خروجى على جامعتهم . إن طهارة الاسلام وسهولته وبعده عن الأهواء والمذاهب الكهنوتية ووضوح حجته كانت هذه الأشياءُ أكبر ما أثر فى نفسى .

إن اعتقاداتى الحاضرة ليست إلا نتيجة تفكير قضيت فيه عدة سنين . إن الدخول فى الاسلام يجب أن يكون ـ كما يقول القرآن ـ بإرادة الإنسان الحرة وبرأيه الذاتى .

وأعتقد أنه يوجد ألوف من الرجال والنساء الذين يدينون بالاسلام فى قلوبهم ولكن مخالفة الاجماع وخوف الانتقاد والرغبة فى إجتناب كل ضيق أو تغيير يحملهم على عدم الجهر بما فى قلوبهم .

ولا ريب أن أسعد أيام حياتى هو اليوم الذى جاهرت فيه على رءُوس الأشهاد بأننى اتخذت الاسلام دينا لى .

وإذا كنت قد ولدت مسيحيا فهذا لا يحتم على أن أبقى كذلك طول حياتى فعلى المرء أن يبحث عن الدين الأمثل ، وقد بحثت عنه أنا فوجدته دينا يمتاز على غيره ببساطته وخلوه من كل مغالطة وإبهام فقررت أن اعتنق هذا الدين الذى ليس فيه أثر للاحتمالات والخيالات التى لا يسع العقل التسليم بها بل هو الدين الذى يدعو إلى الثقة الكاملة بعدل الله ورحمته .

وإنى مسلم منذ خمسين سنة ولكنى لم أعتنق الاسلام رسميا إلا فى نوفمبر ١٩١٣ وذلك لأسباب عائلية وقد كنت من صغرى أشك فى أمور كثيرة فى الدين المسيحى ، وكنت لا أعرف كيف أستطيع أن أومن بالمبدإ المسيحى القائل :

إذا كنت لاتؤمن بألوهية المسيح ، فلا تنجو من عذاب جهنم الأبدى ، وإذا لم تأكل جسد المسيح وتشرب دمه فلن تنجو أيضا » .

لذلك كنت فى دخيلة نفسى ثائرا على الديانة المسيحية منذ الصغر . وفى عام ١٨٨٣ سافرت إلى الهند ، إلى مقاطعة كشمير لمشاريع هندسية وإنشاء فرق لتعمير تلك الولايات على الطرق الحديثة الفنية ، وهناك إجتمعت بصديقى الكولونيل .. الذى أهدانى نسخة من القرآن الكريم .

وكنت أجد فى هذا الكتاب الشريف من بساطة الدين الاسلامى المبنى على الفطرة الطبيعية الصادقة التى تدفع الانسان إلى الخير وتنهاه عن المنكر ما يوافق طبيعة نفسى ويلائم زوحى وكنت كلما قرأت فى ذلك المصحف الكريم اكتشفت بنفسى أننى مسلم دون أن يبشرنى أحد بالاسلام ودون أن يدعونى أحد إلى الاسلام .

لذلك أحب أن يترك الانسان فى مسألة الأديان إلى نفسه ليختار الدين الذى يريده أو يوافقه ، وأنا أعتقد أن ثلاثة أرباع الناس فى انكلترا هم مسلمون دون أن يشعروا أو يعرفوا ذلك .

وإذا سألت أحدا ما هو دينك فيقول لك : أنا مسيحى ، واذا قلت له كلا ، فانت مسلم بحسب اعتقادك ، يضحك منك قائلا : كلا فأنا على دين المسيح .

أنا أومن أن «لا إله إلا الله» وأومن أن محمدا وموسى وعيسى أنبياءُ الله لا نفرق بينهم بحسب تعاليم القرآن وأجد فى الاسلام دينا بسيطا يفهمه قلبي ويتفق معه عقلى لأنى لا أستطيع أن أومن بما لا يفهمه القلب ولا يتفق مع العقل وقد خطر لى أن أعلن إسلامى منذ صغرى ، ولكنى كنت مضطرا ، إلى مراعاة عواطف أنسبائى المتقدمين فى العمر الذين كنت فى غير تلك سأجرح عواطفهم ، وأكسر قلوبهم إذا أعلنت أنى خرجت عن دينهم الذى يعتنقونه ويعتقدون أنه لا خلاص لمن لا يؤمن به .

ولكن فى السنوات الأخيرة قبل الحرب مات جميع المتقدمين فى السن من أقربائى وفى ذلك الحين تعرفت بصديقى خوجه كمال الدين فكنا نتحادث ونتباحث كثيرا فى أمور الدين الاسلامى .

ولا أنكر أن له الفضل الأكبر فى مساعدتى وإرشادى لإعلانى الانضمام إلى حظيرة الدين الإسلامى .

وقد كنت أعجب دائما بما كنت أقرؤ عن أبطال الاسلام وعن أولئك الأفراد الذين خرجوا من العراء حفاة الأقدام فاستطاعوا أن يكونوا أعظم قواد العالم وأعدل قضاة الأرض وأشهر المشرعين على الاطلاق وإنى أفخر بدينى الجديد ، وأشكر الله عليه فهو دين بسيط جدا مفهوم تماما أعرفه كما هو وأعيش بموجبه مسترشدا بما يوحيه إلى ضميرى ووجدانى .

– ٢ –

عندما كنت أقضى – أنا نفسى – الزمن الطويل من حياتى الأولى فى جو المسيحية كنت أشعر دائما أن الدين الاسلامى به الحسنى والسهولة وأنه خلو

من عقائد الرومان والبروتستانت وثبتنى فى هذا الاعتقاد زيارتى للشرق التى أعقبت ذلك ، ودراستى للقرآن المجيد .

كثير من الكتابات المسيحية تثبط عزم المجد وراء الحقيقة .. بإصرارها على إنكار حق الانسان فى أن يتمتع سواءً فى هذه الدنيا أو فى الآخرة ، وجميع الملذات الدنيوية العظيمة تقريبا قيل عنها أنها ذنوب وآثام والحقيقة أن ضد ذلك هو الذى يجب أن يكون ذنوبا وآثاما ..

والغيب مغطى بظلمة الغموض ولكن بدلا من أن نستوضح الألغاز عقدت لنا عقائد الكنائس الأحوال تعقيدا عظيما وساعدت على غلق الطريق أمام الإيمان والاعتقاد الواضح المعقول .

ولكن روح الإسلام الحقيقى تمكن الناس من أن يتصلوا بخالقهم بدون واسطة أو تدخل .

ينظر فى هذا العصر للديانة كأنها شىءٌ مزعج ، والناس إما ملحدون أو متبعون إتباعا أعمى لصنوف عقائد من الأفكار التى لا تقبلها عقولهم وتعاديها الا أنهم يعترفون بها ظاهرا لأنهم يظنون أن ذلك هو خير لهم وأنه يؤدى المطلوب .

إذا كان يمكننا أن نجد فكرا قويا «خاليا من العقد» لكى ينتخب لنا الدين الحق الذى يجب أن نتبعه تكون تلك خطوة عظيمة جدا نحو الاتجاه المطلوب ، إننا اذا ذهبنا الى القسس والرهبان لا نجد لديهم أى مساعدة لأن المذاهب المتعددة تناقض بعضها على حد مستقيم .

إننى أعتقد اعتقادا راسخا بأنه لو اتبعت الشريعة المحمدية التى أتت فى القرآن بعناية تامة ودقة لأصبح من السهل جدا حكم الشعب ، وقد مر العصر الذى كان يمكن أن يجتهد فيه لإقامة أى دين بقوة الاسلحة وإننى لمتأكد من أن المسلمين – أولئك القوم المتشبعون بالإخلاص والوفاء – ما حاولوا قط أن يقيموا الدين الاسلامى بالطرق العنيفه ...

وإنى لمتأكد أنه إذا فهم رجال انكلترا المعنى الحقيقى للاسلام ، لسعوا فى أن يخفوا سوء فهمهم المخجل فى الوقت الحاضر .

ينظر الأوربيون دائما إلى الاسلام كأنه وحشية وهمجية فلو علموا كل ما فعله محمد لا زالة التوحش والهمجية التى لقيها داخل بلاد العرب لغيروا تلك الأفكار حالا . إنهم هم المبشرون المسيحيون الذين لم يدخروا وسعا فى تحريف الديانة الاسلامية وإن هذا لأعظم الكذب الذى يخزيهم .

ما أعظم الفرق بين الطمس التعمدى للحقيقة وبين الحالة التى يسير عليها المبشر المسلم فى عمله .

وليس هناك أى فضيلة دينية من الفضائل المحمدية تطلب أى سلطة دينية إذ عظمة الاسلام أرفع من أن تسيطر عليها مثل هذه الاعتبارات الدنيئة ، وكل متبع اتباعا حقيقيا للنبى العظيم يتطلع إلى جزاء أرقى بكثير من الغنى والفوائد الدنيوية كرقى ضوء الشمس عن ضوء الفسفور .

ليس هناك باباوات ولا أساقف ولا رهبان ولا قسس يطلبون هبات أو ارباحا لان الله نفسه هو « رأس » هاتيك الفضائل الروحية .

أنبأنا التاريخ أن الكنائس المسيحية تطالب دائما بشدة أن يكون لها سلطة دنيوية ويمكننا أن نشير إلى بيع المغفرة وتوزيع المعاشات الدسمة كى نبين فظاعة الأحوال إن معظم ديانة الغرب ما هى فى الواقع الانتيجة خرافات القرون الوسطى وبقايا العصور المظلمة ولا تتفق مع تعاليم موسى والمسيح .

فمجيئ محمد بعد المسيح بستمائة سنة تقريبا كشف عن عدم صحة مثل هذه الأفكار : كالتكفير والتوسط الكهنوتى والتوسل إلى القديسين .

مهما كانت عظمة الشرائع الموسوية ، ومهما كانت طرافة ورقة مبادئ نبى الناصرة (عيسى عليه السلام) يجب أن يعرف أن الشريعة المحمدية التى احتوت على الرسالة السامية تتغلب بتذليلها كل العقبات التى تقف فى سبيل السالك إلى الله .

هناك آيات فى القرآن لا تترك شكا فى معناها وتطبق على جميع هؤلاء الذين يدخلون فى دائرة السيادة الكهنوتية :

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون » .

إن ديانة المسيح ليست تماما ديانة سانت بولس الذى أضاف إليها وغيرها تغيرا كبيرا وليس هناك تناسق فى تلك التعاليم ولكنا نجد فى الاسلام ما يكفى .

ليس فى الاسلام إلا إله واحد نعبده ونتبعه ، إنه أمام الجميع وفوق الجميع وليس هناك قدوس آخر نشركه معه إنه لو أصبح كل فرد فى الامبراطورية الانجليزية محمديا حقيقيا بقلبه وروحه لأصبحت إدارة الأحكام أسهل

من ذلك لأن الناس سيقادون بدين حقيقى ، ولن نبقى ضرائب ثقيلة تدفع للمرور فى الطريق الموصل إلى الفردوس .

منذ عدة سنين خلت ، كان أحد أفكارى الرئيسية هو كيف يمكن الاسلام أن يصبح غربيا حتى تمارسه الأمم الأوربية أو كيف يمكننا نحن معشر الغربيين أن نعد أنفسنا لنكتسب ونفقه معنى الاسلام الحقيقى .

إن القرآن يضيف تعاليم أخرى تؤكد أهمية التعاليم الماضية فى الانجيل وباقى الكتب المنزلة وفوق ذلك فهو يحرم كل نكبات العبادة – الوثنية .

روح الشكر هى خلاصة الدين الاسلامى والابتهال أصل فى طلب الإرشاد من الله ، وإن كان شكرى لله كان متأصلا فى منذ حداثتى ، إلا أننى لا أستطيع أن أشاهد ذلك من خلال السنين القليلة الماضية التى قرع فيها الاسلام لبى حقا ، وتملك رشدى وأقنعنى نقاؤه ، وأصبح حقيقة راسخة فى عقلى وفؤادى إذ التقيت بسعادة وطمأنينة ما رأيتهما . قط من قبل ونجوت من العقائد الغريبة المتعلقة بسائر فروع الكنيسة . ... واستنشقت تلك النجاة كما استنشق هواء البحر الخالص النقى .

وبتحقق من سلاسة وضياء وعظمة الاسلام ومجده أصبحت كرجل قفز من سرداب مظلم إلى فسيح من الارض تضيئه شمس النهار .

دمر التعصب الدينى الأعمى الكنائس فى تنافسها إلا أن ذلك لا يمكن أن يقال عن الاسلام الذى هو كتلة متحدة ، والكنائس يناقض إحداها الأخرى ، ومعلموا لاهوتها (كهنتها) وضعوا عقد التعاليم التى لا تحل والقلوب المبصرة تتوق إلى دين مفهوم مقنع وسهل غير معقد .

وإنى أعترف أن زياراتى للشرق ملأتنى احتراما للدين المحمدى السلس الذى يحصن الإنسان بعين الله حقيقة طول مدة الحياة لا فى أيام الآحاد فقط.*

---

* المنار ج ٧م٢٤ (اكتوبر ١٩٢٢)
* المنار ديسمبر ١٩١٣
* المنار ج ٥م٢٩

هنرى دى كاسترى

كنت ذات يوم أجوب جوف الصحارى فى ولاية حوران بن زرقوم وسجير وخلفى ثلاثون فارسا كريما من اولاد يعقوب يمشون جماعات جماعات لأن حدة الخيل كانت تمنع من انتظامها .

وكنت أبلغ الخامسة والعشرين من العمر ، والفصل فصل الشتاء ويومنا يوم جميل تنشط الأبدان حرارته ويبلغ ضوؤه حد البهاء وروائحه تنعش السالكين وتجعل المستنشق شاعرا بتمام الحياة يخالجنى مع ذلك إحساس آخر هو شغفى بتلك المدوحة التى كان اسمها يروح ويغدو فى اقوال أولئك الشجعان وبينما نحن سائرون على هذه الحالة إذ سكت الشاعر والتفت قائلا بصوت خشن .

« سيدى الآن وقت العصر » .

هنالك ترجلت الفرسان واصطفوا لصلاة العصر مع الجماعة ، اما انا فقد ابتعدت عنهم وكنت أود أن انشقت الأرض فابتلعتنى وجعلت أشاهد البرانس العريضة تنثنى وتنفرج بحركات المصلين واسمعهم يكررون بصوت مرتفع : الله أكبر .. الله أكبر فكان هذا الاسم الالهى يأخذ من ذهنى مأخذا لم يوجده فيه درس الموحدين ومطالعة كتب المتكلمين وكنت اشعر بحرج لست أجد لفظا يعبر عنه سببه الحياء والانفعال ، أحس أن أولئك الفرسان الذين كانوا يتدانون أمامى قبل هذه اللحظة يشعرون فى صلاتهم بأنهم

ارفع منى مقاما واعز نفسا فما أجمل منظر أولئك القوم فى نظامهم لصلاتهم بملابسهم وجيادهم بجانبهم أرسانها على الأرض، وهى هادئة كأنها خاشعة للصلاة تلك هى الخيل التى كان يحبها النبي صلى الله عليه وسلم حبا ذهب به إلى انه كان يمسح خياشيمها بطرف إزاره ، عملا بوصية جبريل .

وكنت أرى نفسى وحيدا فى عرض هذه الصحراء على ما انا به من اللباس العسكرى الضيق فى مكان هو مسقط رأس الديانات ، كاننى من الحجر أو من الكلاب امام أولئك القوم الذين يكررون لربهم صلوات خاشعة تصدر عن قلوب ملئت صدقا وإيمانا.

* * *

ولما رجعت إلى مكان راحتى جعلت اكتب ما علق بذهنى من الأفكار ، فأحسست اننى منجذب بحلاوة الاسلام ، كأنها اول مرة شاهدت فى الصحراء قوما يعبدون خالق الأكوان .

وكنت فى سن يستسهل العقل فيه حل المشكلات ويأخذ الأشياء من ظواهرها ، ويحل الخيال فيه محل النقد والتنقيب ويعتقد المرءُ فى الأمور بغير قيد ، وهو سن لو انصف اهله لما كتبوا والفوا . وكنت ارى ان جمال الدين اصدق شاهد على انه الدين الحق . وصرت اكتب عن الاسلام غير شاعر بما يخطه القلم طوع الفؤاد .

والحق ان الاسلام ما دخل بلدا إلا صار ذا المقام الأول بين الديانات ، من غير ان يتعرض لمحوها ... وعلى هذا يتحقق ان الاسلام لم ينتشر بالقوة والعنف بل الأقرب للصواب ان يقال إن كثرة مسالمة المسلمين ولين

جانبهم كان سببا فى سقوط المملكة العربية . ولقد يعجب المؤرخون من سرعة انتشار الاسلام حتى بلغ نهر اللوار فى فرنسا ويتساءلون ما الذى كان يصير إليه حال أوربا لو لم يقف (كارلوس مارتل) فى وجه المسلمين فى سهول (بواتييه) ونحن نرى ان هذا السؤال موضوع وضعا مقلوبا والأولى أن يقال ما ذا كان يصير إليه حال أوربا المسيحية لو كان المسلمون متعصبين لأن إنكسارهم فى بواتييه ليس سببا كبيرا يكفى لأن يعوق الاسلام عن الانتشار[1] .

---

(١) من كتابه « الاسلام : خواطر وسوانح » ترجمة فتحى زغلول

ليوبولد فابس

فى عام ١٩٢٢ تركت النمسا بلادى لاتجول فى إفريقية وآسية بصفتى مراسلا لبعض أمهات الصحف الأوربية . ومنذ ذلك الحين قضيت كل أوقاتى تقريبا فى الشرق الاسلامى .

ولقد كان اهتمامى بالشعوب التى احتككت بها فى أول أمرى إهتمام رجل غريب ، لقد رأيت نظاما اجتماعيا ونظرة إلى الحياة تختلف أساسيا عما هو الحال فى أوربه .

ومنذ البداءة الأولى نشأ فى نفسى ميل إلى إدراك للحياة أكثر هدوءا — أو إذا شئت — اكثر انسانية ، اذا قيست بطريقة الحياة الآلية العجلى فى أوربه ، ثم قادنى هذا الميل إلى النظر فى أسباب هذا الاختلاف .

وهكذا أصبحت شديد الاهتمام بتعاليم الاسلام الدينية ، الا أن هذا الميل لم يكن ، فى الزمن الذى نتكلم فيه ، كافيا لجذبى الى حظيرة الاسلام ، ولكنه كان كافيا لأن يعرض أمامى رأيا جديدا فى إمكان تنظيم الحياة الانسانية مع أقل قدر ممكن من النزاع الداخلى وأكبر قدر ممكن من الشعور الأخوى الحقيقى .

إن الحياة الاسلامية فى الواقع تظهر ، على كل حال ، فى أيامنا الحاضرة بعيدة جدا عن الإمكانيات المثلى ألتى تقدمها التعاليم الدينية فى الاسلام ، فإن كل ما كان فى الاسلام تقدما وحيوية أصبح بين المسلمين اليوم تراخيا وركودا .

لقد تخيلت نفسى واحدا من الذين يضمهم الاسلام ، على أن ذلك كان تجربة عقلية بحتة ، ولكنه كشف لى فى وقت قصير عن الحل الصحيح ، لقد تحققت أن ثمة سببا واحدا فقط للانحلال الاجتماعى والثقافى بين المسلمين ، ذلك السبب يرجع إلى أن المسلمين ، أخذوا شيئا فشيئا يتركون اتباع روح التعاليم الاسلامية ، لقد ظل الاسلام بعد ذلك موجودا ولكن جسدا بلا روح . وكلما ازددت فهما لتعاليم الاسلام من ناحيتها الذاتية ، إزددت - رغبة فى التساؤل عما دفع المسلمين إلى هجر تطبيقها . لقد ناقشت هذه - المشكلة مع كثير من المسلمين المفكرين فى جميع البلاد ما بين طرابلس الغرب إلى هضبة البامير (فى الهند) ومن البوسفور إلى بحر العرب ، فأصبح ذلك تقريبا شجى فى نفسى طغى فى النهاية على سائر أوجه اهتمامى الثقافية بالعالم الاسلامى ، ثم زادت رغبتى فى ذلك شدة - حتى أنى وأنا غير المسلم - أصبحت أتكلم إلى المسلمين أنفسهم مشفقا على الاسلام من إهمال المسلمين وتراخيهم ، لم يكن هذا التطور ينافى نفسى ، إلى أن كان ذات يوم - وذلك فى خريف عام ١٩٢٥ - وأنا يومذاك فى جبال الأفغان ، فقد تلقانى حاكم إدارى شاب بقوله «ولكنك مسلم غير أنك لا تعرف ذلك فى فى نفسك «لقد أثرت فى هذه الكلمات غير أنى بقيت صامتا ولما عدت إلى

أوربة مرة ثانية فى عام ١٩٢٦ وجدت أن النتيجة الوحيدة لميلى هذا أن اعتنق الاسلام .

لماذا اعتنقت الاسلام ؟

يجب أن أعترف بأنى لا أعرف جوابا شافيا ، لم يكن الذى جذبنى تعليما خاصا من التعاليم ، بل ذلك البناء المجموع العجيب ، والمترامى بما لا نستطيع له تفسيرا من تلك التعاليم الخلقية بالاضافة الى منهاج الحياة العملية .. لا أستطيع اليوم أن أقول أى النواحى قد استهوانى أكثر من غيره . فإن الاسلام على ما يبدو لى بناء تام الصنعة وكل أجزائه قد صيغت ليتم بعضها بعضا ، ويشد بعضها بعضا ، فليس هناك شئ لا حاجة إليه ، وليس هناك نقص فى شىء فنتج عن ذلك كل ائتلاف متزن مرصوص ، ولعل هذا الشعور من أن جميع ما أتى به الاسلام من تعاليم وفرائض « قد وضعت مواضعها » هو الذى كان له أقوى الأثر فى نفسى ، لقد هبط على الاسلام كاللص الذى يهبط المنزل فى جوف الليل ، ولكنه لا يشبه اللص لأنه هبط على ليبقى إلى الأبد .

ومنذ ذلك الحين سعيت إلى أن أتعلم من الاسلام كل ما أقدر عليه ، لقد درست القرآن الكريم وحديث الرسول ولقد درست لغة الاسلام ، وتاريخ الاسلام ، وكثيرا مما كتب عنه ، أو كتب فى الرد عليه ، وقضيت أكثر من خمس سنوات فى الحجاز ونجد وأكثر من ذلك فى المدينة ليطمئن قلبى بشىء من البيئة الأصلية للدين الذى قام النبى العربى بالدعوة إليه فيها .

وبما أن الحجاز ملتقى المسلمين من جميع الأقطار فقد تمكنت من المقارنة بين أكثر وجهات النظر الدينية والاجتماعية التى تسود العالم الاسلامى فى أيامنا ، هذه الدراسات والمقارنات خلقت فى العقيدة الراسخة بأن الاسلام من وجهتيه الروحية والاجتماعية لا يزال بالرغم من جميع العقبات التى خلفها تأخر المسلمين أعظم قوة نهاضة بالهمم عرفها البشر .

وهكذا تجمعت رغباتى كلها منذ ذلك الحين حول مسألة بعثه من جديد[1]

---

(١) من مقدمة كتابه « الاسلام على مفترق الطرق »

نشكنتنابا دهيابا(١)

كنت كثير الاعجاب بمذهب العقليين ، ولكنى لم ألبث أن تحولت عنه ، لأن هذا المذهب لم يرو لى غليلا ، فأخذت فى درس الدين البوذى ، وأعجبت بمظاهر رفعته الخلقية ، وعندما تعلمت الفرنسية أعجبت برينان ، وكان من تأثير ذلك أننى أخذت فى دراسة لغات الساميين وأديانهم وكرست قسما عظيما من حياتى لدرس المقابلة بين الاديان العظيمة اعنى اليهودية والزرادشتية والبرهمية من الجهة الواحدة والبوذية والنصرانية والاسلام من الجهة الاخرى ، ووقف دون تنصرى مسألتان : الفداء والهلاك الأبدى يضاف إليهما فى الكاثوليكية اعتقاد العصمة البابوية .

ولما عدت إلى البلاد الهندية ، فى هذه الحال من تبلبل الفكر فرغت نفسى لدرس الرياضة (التصوف) وعدت منها غير مقتنع ، ولم أعط البوذية والاسلام حقهما من الدرس حتى ذلك الحين فدرست الأولى منهما ، ثم استمالنى الاسلام أخيرا وأثر فى نفسى تأثيرا باقيا ، وكنت قد شعرت بصحبته وبصحته منذ مدة طويلة ، ولكن الظروف الخارجية منعتنى من التصريح بذلك حتى ٢٨ اغسطس حين صرحت فى محفل بدخولى الاسلام برسالتى «لماذا انتحلت الاسلام» .

---

(١) نشكنتنابا دهيابا : القاضى بكلية حيدر أباد وأستاذ التاريخ فى كلية مهراجا فى ميسورى .

وقد بنيت رضائى بالاسلام على ثلاثة أسباب رئيسية :

أولا : صحة اخبار الاسلام وأنه الدين التاريخى الوحيد .

ثانيا : موافقته للعقل .

ثالثا : أنه عملى لا خيالى .

وعندى أن ميدانه التاريخى قد أثر حتى فى اعداء محمد واتباعه ، فضلا عن جريه على قواعد العقل على اساس قاعدتين : توحيد الله ورسالة محمد ، وأنه يجب على كل صحيح عاقل أن ينقاد لهذه الحقيقة البسيطة الجليلة وهى توحيد الله الخالص ، ولا يوجد فى الاسلام ثلاثة فى واحد ، ولا ثلاثون مليونا من الالهة[1] .

(١) المنار م٨ ــ ١٩٠٥ (ص ١٩٤)

قسطنطين ملحم(1)

ليس اعتناق للاسلام مدعاة للاستغراب ولا موضعا للظن والريب ، فإنه هو بحسب اعتقادى ، ليس إلا تطورا طبيعيا يؤدى إليه التعمق فى درس الأديان المتسلطة اليوم على عقول البشر . اللهم إلا إذا كان عقل الدارس غير مقيد بقيد غليظ. يربطه باحد الاديان ربطا محكما ، لا يستطيع الافلات منه .

إن المذهب البروتستنتى هو اقرب المذاهب المسيحية إلى الدين المسيحى – الحقيقى ، غير أنه يعاب فى نظرى لاقراره بالوهية المسيح ، وأنا مع اعتبارى السيد المسيح من فضلاء المصلحين ، والانبياء ، وفى اعتبارى أن النبوة وحى إلهى لا أقر له بالألوهية . ولن أعبد قط. رجلا مثلى من دم ولحم .

هذه العقيدة راسخة فى منذ بلغت رشدى وقد جاهرت بها عندئذ بين أهلى وأقاربى ، وكل من شافهنى فى هذا الموضوع منذ سنين طويلة ، فتطورى إذن ليس حديث العهد ، كما يتوهم بعض عارفى ، بل هو نتيجة اقتناع راسخ مستحوذ لا على فقط. بل على السواد الأعظم من المسيحيين المتعلمين .

أما ميلى إلى الاسلام فليس حديث النشأة أيضا ، والذين اطلعوا على كتاباتى فى جريدتى المحتجبة (اداليد) ومجلتى (لابالابرابورتانيا) فمنذ

(1) المنار : م ٢٨ ص ٧٠٥ (بتصرف)

خمس سنوات بدأت بالموافقة جهرا على الاسلام بعلمي ولساني ، بعد أن كنت أدافع عنه سرا بلساني فقط .

غير أن ميلي المذكور لم يصل بي إلى حد التدين نهائيا بالدين الذي آليت على نفسي الدفاع عنه ،وماذ لك إلا لأني كنت لم أزل أجهل عنه الشئ الكثير فعندما عولت على وضع كتابي « شرائع الاسلام » رغبة مني في دحض افتراءات المفترين على الشريعة السمحاء ، رأيتني مضطرا لمراجعة مصنفات الأئمة الأعلام ومطالعة أكثر من واحد من كتب الدين فاتضح لي عندئذ بجلاء ، جمال هذا الدين السامي وفضل المصلح العظيم (محمد بن عبد الله) على الانسانية جمعاء فصممت حينئذ على اتخاذ الاسلام دون باقي الأديان دينا أتدين به عام ١٩٢٤ .

بيد أنه لحذري من سوء ظن الذين لا يتصورون أن المرء قد يعشق الجمال لمجرد الجمال ، بل لما يتضمن من لذه مادية وحشية قلت لهم إني لهذهالأسباب تركت أمر إسلامي على الخفاء إلى أن جاء زمن إعلانه ، ولم يبق في وسعي السكوت ، فأنا منذ ثلاث سنوات مسلم بكل ما في الاسلام من مبادئ سامية وأفكار راقية وروح تعاضد وحب خير وابتعاد عن المنكر .

والذي يزيدني تمسكا به ماوجدته فيه من الحض على العلم والعرفان ومطابقته روح المدنية الحقيقية .

فالاسلام دين علم وعمل ، وهو دين إيجابي بعكس غيره الذي هو سلبي ، يأمر بانكار الذات التام ويحض على الابتعاد عن كل ما في الدنيا من رزق

ومتاع ، أما الدين الاسلامى فيمكننا العمل باوامره تماما دون أن يحوجنا ذلك إلى الابتعاد عن العالم وما فيه من لذة .

إن سنة النشوء والارتقاء تقضى ببقاء الأصلح فمن ترك أمرا صالحا للتمسك بما هو أصلح منه أو بما يعتقد أنه أصلح منه ، كان عاملا بأوامر تلك السنة الأزلية التى لا مرد لأحكامها .

هارى هينكل(١)

اخترت الديانة المسيحية فى بدء حياتى بحكم الوراثة كما كان يعتقد أهلى وأقاربى ، وليس بمحض إرادتى ، غير أن عقيدتى فى الدين تكونت نتيجة لبحث وتحليل عميقين .

قرأت الكتاب المقدس عدة مرات ، وأنا أشك كثيرا ، إذا كان هناك شخص قرأ الانجيل ولم يتأثر لهول الأخبار والاقاصيص المسطرة بين صفحاته .

والحقيقة أن الانسان بعد قراءته للانجيل لا يسعه إلا أن يندهش لطبيعة الاله المسيحى ، من المفروض على كل مسيحى أن يقتنى الكتاب المقدس ليس ككتاب دينى تجب قراءته بل كقطعة نفيسة يزين بها بيته .

قال شارلس فرانسيز : فى كتاب «قصة الدين» ان الانجيل كتاب لايعرفه أحد فى أمريكا أما «القرآن» فهو كتاب يعرفه كل مسلم .

لقد كان الانجيل السبب الرئيسى فى خروجى من حظيرة الديانة المسيحية وبعد خروجى أخذت فى قراءة الديانات الأخرى فكانت النتيجة كفرى والحادى ، ومع هذا فقد تأصلت فى نفسى غريزة كانت تدفعنى للسؤال جريا وراء حقيقة واحدة هى إثبات وجود الخالق لهذا العالم .

ولكن ، ليس الاله الذى يمجد سفك الدماء ، ومن نتيجة هذه الدراسة

---

(١) مجلة الشهاب الجزائرية مجلد ١٩٣١ عن مجلة (اسلاميك ريفيو)

وجدت فى نفسى ميلا للاسلام ، لأنه دين العقل والتسامح ، وهو خال من كل شائبة .

وجدت الاسلام يشجع على متابعة الحقيقة ، ان صحائف التاريخ مملوءة بالحقائق التى تثبت عرقلة الأديان الأخرى للمدنية والعمران .

وقال يوسف مكاب أحد الموحدين : من الصعب جدا وجود علم غير مدين بفضله للاسلام ولا أتردد لحظة فى القول ثانية بأنه لو كان الاسلام منتشرا فى الغرب أكثر من انتشاره اليوم لأدهش العالم المتمدين بكثرة انصاره

ويرجع السبب فى عدم انتشاره إلى تشويه الحقائق التى يتعمدها البعض ممن يتصدون لترجمة الكتب الاسلامية إلى اللغات الأخرى[1] .

---

(١) مجلة اسلاميك رفيو

الدكتور خالد شلدريك

انى أتخذت الاسلام دينا بعد بحث وتنقيب ، لم أتلق هذا الدين فى أول الأمر من كتبه ، ولكنى تلقيته من كتابات الطاعنين عليه ، ولدت من أبوين بريطانيين تابعين للكنيسة الانجيلكانية ، كان والدى يتمنى أن يرانى قسيسا من رجال هذه الكنيسة ، لذلك كان يسره أن أطالع كتب الدين .

إن انجلترا وإن تكن مسيحية فى الظاهر فان (٩٠ فى المائة) من سكانها لا يعرفون حقيقة الديانة المسيحية ، فالديانة المسيحية مؤسسة على اعتقاد أن الله مكون من ثلاث شخصيات ،وهى عقيدة لا يستسيغها عقل ، ويقولون أن المسيح ولد فى ٢٥ ديسمبر ، وهذا التاريخ ليس له سند معاصر للمسيح أو قريب منه ، وإنما حدده أحد الباباوات من غير اعتماد على أصل تاريخى فالعلم بقواعده التى نعرفها لا يستطيع أن يثبت أن يوم ٢٥ ديسمبر هو يوم ميلاد المسيح .

وعقيدة الأب والابن نفسها من عقائد الوثنيين القدماء فإن البوذيين يصورون بوذا فى طفولته مع أمه (باما) نفس الصورة التى نراها منقوشة فى كل كنيسة ... للمسيح فى طفولته مع أمه مريم اتخذ المسيحيون من الوثنيين للاعتدال الربيعى (٢٥) ديسمبر موعدا لولادة الشمس عيداً لميلاد المسيح .

وفى الحقيقة أن الشخصية التى يدعيها المسيحيون للمسيح ليست تاريخية قطعا ، والباحث عن ذلك بالأساليب العلمية ليرى مبلغ ذلك من الواقع يخرج من بحثه صفر اليدين .

والاختلاف بين المسيحيين شديد جدا فى أصول المسيحية ، وفى تكوين العقيدة عن المسيح ، وقد حملنى هذا على البحث والتأمل ودرس الديانات الأخرى .

درست البوذية والبرهمية وسائر الأديان وفى دور الكتب العامة بانجلترا بحوث عن كل دين ما عدا الاسلام ، فان الكتب التى ألفت عنه مملوءة بالتحامل والمطاعن ، والغرض الظاهر . .

وزعموا أن الاسلام ليس دينا مستقلا ، ولكنه أقوال محرفة عن كتب المسيحيين وقد تساءلت فى نفسى اذا كان الاسلام لا أهمية له الى هذا الحد فلماذا هم يبذلون كل هذه الجهود للتحامل عليه ومقاومته وتوجيه المطاعن إليه .

ولقد مضى على دخولى الاسلام خمسة وثلاثون عاما ، وأنا الآن أشدّ تمسكا به وعلما بمحاسنه عما كنت فى ذلك الحين .

وليس عندى ريب فى أن الاسلام سيكون يوما ما الدين الذى يسود العالم أجمع وهذا يتوقف على سببب جوهرى هو أن يكون المسلمون مثالا حسنا يعلن عن الاسلام ويعرّف الأمم به عمليا .

ولما شرعت أدرس عقائد الاسلام بعد أن انتهيت من الوقوف على الحقائق السالفة الذكر وجدت جميع عقائده مقبولة عقلا فعقيدة التوحيد الخالص

التى امتاز بها الاسلام هى أصح العقائد التى عرفها البشر ، وهى كاملة فى توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وإعلان صفات الكمال لبارئ الكون والاعتراف بجميع أنبياء الله ورسله . ويزعمون فى أوربا أن الاسلام انتشر بالسيف وهي فرية ، يعلمون هم بأنفسهم أنها كاذبة وغير معقولة لأنها تخالف وقائع التاريخ كما تخالف حقائق الاسلام ، ولو انتشر الاسلام بالسيف كما زعموا لما بقيت هذه الكنائس والبطركيات والأوضاع غير الاسلامية المنتشرة فى العالم الاسلامى والمتسلسلة من أقوى أزمانه إلى الآن .

وتسليط السيف على العقائد هو من شأنهم بدليل ما فعلوه فى الأندلس مما دونته بطون التاريخ ووقفوا به أنفسهم أبد الآبدين وعلى كل حال فإذا كان هناك دين انتشر بالسيف فليس هو الاسلام بل غيره .

إنى كلما ازددت علما بالاسلام ازددت إجلالا له وتمسكا به ولا ادعى أننى درست الديانات كلها ولكنى بلا شك وقفت منها على ما فيه مقنع لمثلى .

اتيان دينيه

وصية الله لنا معشر المسلمين أن لا نعتدى ، أما أهل السوء ممن لا ينفكون يهاجموننا بالأباطيل ويحاربوننا بالمفتريات فليس علينا جناح إذا ما أورينا لهم من نوع سلاحهم ودفعنا عن بيضة الاسلام بهتانهم .

وإذا نحن شئنا أن نحصى أكاذيبهم علينا كانت منها صفحة هى من أسود الصفحات خزيا فى سجل التعصب . بل وجدناها مجموعة كبيرة تلك المثالب التى قام بها أعداءُ الاسلام ، سواء كانوا من علمائهم أو روادهم أو قساوستهم أو رجال حكوماتهم أو كتابهم أمثال :بيرون وبلجراف وجلادستون ومرجليوت وقسيس كانتربرى والأب لامنس ولوى براتران .

ومن كبائر المطاعن التى يوجهها علماءُ النصرانية للاسلام نكرانهم عليه الابتكار والاتيان بالجديد ، والابداع بما هو خاص به ، على أننا لا يدهشنا أن نسمعها من المتعنتين وإنما يدهشنا أن يصدقها النفر الذين يحسنون الظن بديننا .

أنهم ينظرون إلى سان لوى (القديس لويس) كأنه النوذج الأعلى للثمرة ـ المسيحية الناضجة ، غير أن الوثائق التاريخية تثبت بوضوح وسهولة أن خصمه صلاح الدين الأيوبى كان أرفع منه قدرا فى الحضارة وفى الشجاعة وفى معاملة الخصوم . وهم يفخرون بالعالم باستور الفرنسى ويجعلونه درة فى تاج الحضارة الحديثة ولكن فاتهم أن (جابرا) و(الرازى) لا يقلان عنه فى

مرتبة العلماء والمفكرين وهما المؤسسان الحقيقيان لعلم الكيمياء بفضل ما كشفاه عن طريق التقطير ومن حمض النتريك وحمض الكبريتيك .

والمسيحية وإن ظهر أنها تحكم العالم فى وقتنا الحاضر فليس ذلك مرجعه إلى تعاليمها دون غيرها ، بل أن مرجع ذلك إلى ما تستفيده من القوة المادية التى أوجدتها المستكشفات التى قام بها العلماءُ الغربيون بل أن منهم من حاربتهم المسيحية واضطهدتهم . خذ مثلا (جاليلوا) الفلكى الايطالى واتين دوليه الكاتب الفرنسى وغيرهما ممن ذهبوا ضحية التعصب الذميم .

أن الشخصية التى حملها محمد بين برديه كانت خارقة للعادة وكانت ذات أثر عظيم جدا حتى أنها طبعت شريعته بطابع قوى جعل لها روح الابداع وأعطاها صفة الشيء الجديد .

إن للاسلام عقيدة التوحيد الالهية العليا ؛ وله تلك المبادئ السامية ، التى تقوم على تلك العقيدة .

والاسلام هو الدين الوحيد الذى لم يتخذ من الاله شكلا بشريا أو ما إلى ذلك من الأشكال ، أما فى المسيحية فان لفظ الله تحيطه تلك الصورة الآدمية لرجل شيخ طاعن فى السن قد بانت عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال . وكذلك يا هو (Jehorah) الذين يمثلون به طهارة التوحيد اليهودى فهم يجعلونه فى مثل هذه المظاهر المتهالكة . وكذلك نراه فى متحف الفاتيكان وفى نسخ الأناجيل المصورة القديمة .

أما (الله) فى دين الاسلام الذى حدث عنه القرآن فلم يجرؤ مصور أو نحات أن يجرى به ريشته . أو ينحته أزميل ذلك بأن (الله) لم يخلق

الخلق على صورته وتعالى الله سبحانه فلم تكن له صورة ولا حدود محصورة وهو الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يكن له كفوا أحد .

وللاسلام على النفوس طابع لا يمحى حتى أن الكونت دى كاستري - وهو مسيحى متعصب - أيقن بهذه الحقيقة وقال تلك الكلمة الكبيرة فى كتابه الاسلام . صفحة ٢٨ (إن الاسلام هو الدين الوحيد الذى ليس فيه مرتدون) .

أما أن الله سبحانه قد «اوحى» الانجيل الى عيسى بلغته ولغة قومه فالذى لا شك فيه أن هذا الانجيل قد ضاع واندثر ولم يعد له أثر أو أنه قد أبيد .

ولهذا قد جعلوا مكانه (توليفات) أربع مشكوك فى صحتها وفى نسبتها التاريخية كما أنها مكتوبة باللغة اليونانية وهى لغة لا تتفق طبيعتها مع لغة عيسى الأصلية التى هى لغة سامية لذلك كانت صلة السماء بهذه الأناجيل اليونانية أضعف بكثير من صلتها بتوراة اليهود وقرآن العرب .

ثم الأناجيل ألم يدخل عليها التنقيح والتهذيب فى كثير من المواضع التى لم تعرف بعد ، ولم أغفل رجال الأناجيل ثلاثين عاما من حياة المسيح دون أن يذكروا لنا عنه فيها شيئا إلا ما اختص منها بالسنين الثلاث الأخيرة .

وأمرٌ آخر فات رجال الأناجيل ذلك أنه مع عظم خطر هذه الثلمة فى سنى حياة المسيح فان الاناجيل لم ينلها التنقيح الواجب الدال على المهارة والذكاء ذلك لأن واضعيها ، وهم قليلو الخبرة بعلم النفس لم يدركوا أن ما يصح ذكره على لسان (نبى) لا يصح أن يقال على لسان (ابن الله) .

سلطانة جاهان مهوبال

خطابها إلى دى سبلنكورث (ناظرة مدرسة البنات العليا بالله أباد[1])

إن جميع الاعتبارات الشخصية التى أشارت إليها الآنسة ريتشارد سون فيما يختص بمركز المرأة فى الاسلام لم تكن قائمة على معرفة الدين الاسلامى وعالمه .

المعرفة الحقة ، فقد بدا لها أن الاسلام ينشئ ويحفظ بطبيعته للمرأة المسلمة انحطاطا نسبيا أكثر مما ورد فى أى عالم دينى آخر .

وأنها لا تعجب حينذاك إذا رأت بين المسلمات الكثيرات من الغاشات وربات المكر والخيانة ، غير أنى أعتقد فى هذا الحكم على كثير من المسلمات إجحافا بحقوقهن وباعتبارى مسلمة ولى إلمام بأركان دينى وعقيدتى أعرف أن الاسلام لم يصدر لائحة ولا قانونا ولاعقداً يقضى بأن يكون مركز الجنس اللطيف منحطا على أى وجه من الوجوه بل على نقيض ذلك ، فقد منح الاسلام للمرأة مركزا عادلا حسنا يمكن أن تحصل عليه بمحض إرادتها فى أى وقت شاءت فضلا عن أنه لم ينتشل المرأة من أعماق هاوية الانحطاط التى كانت غارقة فيها فى الجاهلية فحسب ، بل منحها مركزا شرعيا محددا ، لا يمكن لأى دين آخر أن يوجد نظيرا له ، فقد منع النبى صلى الله عليه وسلم الجور

---

(١) ترجمة عبد العزيز شاويش : جريدة الاخبار ٣ اكتوبر ١٩٢٣ (عن المجلة الاسلامية عدد يناير سنة ١٩٢٣)

الذى كانت تلقاه النساءُ قبل بعثه كما أمر أتباعه من المؤمنين باحترام الجنس اللطيف .

ولقد فرضت تعاليم النبي صلى اللهعليه وسلم المساواة بين الجنسين وإنى أقول دون أن أخشى فى ذلك لوم المعارضين أن الاسلام قد وضع أقوم الطرق لتثقيف المرأة عقليا وعلميا ، وأمر باكبار المرأة الفائق واحترامها الزائدة وحبذا لو تعلم الغربيات اللغة العربية وأمكنهن دراسة القرآن الدرس الكافى الذى يكفل إزاحة كثير من سوء التفاهم وأن من يتبع ما سطرته يد الكتاب المسلمين والأوربيين غير المتحيزين فى هذا الموضوع يستنتج أن الاسلام قد هيأ للمرأة من الحقوق المشروعة ما لم يهيئه لها أى دين آخر ، والواقع أن جميع ما وجه ضـــد ديانتنا من التهم المتداولة لم ينجم إلا عن الجهل المطلق بأصول تعاليم الرسول الكريم ، فإن تاريخ الاسلام مفعم بحوادث يخطئها العد ، تنطق بما وصلت إليه المسلمة من التهذيب والرقى الذى كان من عوامل تأثير الدين وليس ناتجا عن أى تشجيع أو وازع آخر . كان من بينهن المتضلعات فى القوانين وأصولها والتوحيد والفقه والفنون الجميلة وقد تركن من ورائهن سجلات ضمت بين دفتيها من نبيل أعمالهن وبطولتهن ما لم نجده فى تاريخ أى عالم آخر . كيف لا وقد ارتقين منصات الخطابة وفهن بالخطب البليغة المؤثرة والقين المحاضرات وطالما لعبن أدواراً مهمة فى سياسة بلادهن وبدون أن نلجأ إلى ما ورد فى تصريح المقرظين والأتباع فقد كن ببعض كليات من نصائحهن النفيسة الخالصة يدرن عنان الادارة او يقدن الرأى العام إلى ما فيه خير البلاد . كن فى ساحة القتال يمرضن العليل والجريح ويحرضن الجند بطرق مشجعة على حماية بيضة أمتهن وحفظ كيانها

ولا أخالك تعلمين أنهن كن يحاربن مع الرجال بشجاعة نادرة فى كثير من الوقائع الحربية .

هذه هى حقيقة الصفات التى اكتسبتها النساء بعد ظهور نبينا بزمن يسير ، نبينا الذى لا تعرفه أخوتنا الغربيات تماما .

نشكرك لمراسلاتك لنا ولكنا نرجوك فى الوقت الذى تجهلين فيه أركان الاسلام أن لاتصفى الأدواء لمعالجة حالة التدهور والعطب الراهنة قبل أن تدرسى آداب ديننا .

هذا وليس فى مقدورى أن أعمل أفضل مما لو رجوت من إخواتى الغربيات أن يدرسن «القرآن» الذى هو عماد ديننا بل سلسلته الفقرية وأن يدرسن ما جاء به مشهورو كتاب الاسلام .

وبقدر ما تسمح به معلوماتى فى شأن الفروسية وفنونها فان الغرب قد نقلها عن الشرقيين وليس أدل على مساوئ نكد الطالع وتعريضه بنا من أن الغربيات لا يزلن ينظرن إلى أخواتهن الشرقيات بعين السخرية .

أما المدارس التى قمت بتأسيسها فى مهوبال فتقوم بعملها خير قيام وثق أننى أول من يهتم فى الهند بأمر رقى التعليم[1] ...

---

(١) سلطانة ماهوبال : اسمها نواب سلطان جهان بيكم . وهى زوجة العالم الشهير نواب صديق حسنى خان صاحب المؤلفات والأبحاث الكثيرة توفيت ١٩٣٠ وكانت قد تركت الحكم لابنها (نواب حميد الله خان) عام ١٩٢٣ وقد تولت الملك سنة ١٩٠٠ وزارت أوربا ومصر سنة ١٩١١

الدكتور بنوا

إنى طبيب مهنة وسليل عائلة فرنسية تنتسب إلى الكاثوليكية . هذا وقد سبقت لى بسبب مهنتى ثقافة علمية متينة ، لم يكن من جوهرها أن توجهنى إلى الحياة الدينية ، والسبب فى ذلك راجع لعدم ايمانى بوجود الله ، إذ لم أكن كافرا وإنما لعقائد المسيحية والمذاهب الكاثوليكية غير المقبولة عندى والتى لم تثبت لى وجود الله .

ومن ثم كان شعورى بوحدانية الله يمنع على قبول مبدأ «ثالث ثلاثة» كما أنه كان بطريق التبعية يحول بينى وبين الاقرار بالوهية المسيح وبهذا كنت على اتفاق من حيث لا اشعر مع ما تضمنه الشطر الأول من شهادتنا «لا إله إلا الله» ومع روح سورة الاخلاص «قل هو الله أحد (الآية)» .

وعليه تبين أن اعتناق الاسلام كان راجعا فى أول أمره إلى اسباب روحية بحتة ، إلا أن اسبابا أخرى حملتنى على دخول هذا الدين ومن بينها عدم الرضى بالرهبانية التى يجترئ اصحابها على نيل سلطة يعتقدون من ورائها أنه يمكنهم محو السيئات البشرية كما لم تكن ترضينى طريقة «التعميد» كما أن هناك أمرا آخر أبعدنى عن المسيحية الا وهو التغافل التام عن النظافة البدنية قبل الصلاة والآن أصل إلى الأمر الرئيسى والحاسم الذى أيد لى عظمة الاسلام فدفعنى إلى اعتناقه الا وهو «القرآن» لقد كنت تصفحته قبل إسلامى بروح النقد الموجودة عند كل مثقف عربى ، وكان قد ساعدنى على

درإاك معناه كتاب «مالك بن نبى» القيم «الظاهرة القرآنية» الذى زادنى يقينا بنزول قرآننا . ويتضمن الكتاب صفحات من بينها تلك التى تتناول موضوع المناسبات حيث يبين المؤلف ان نصوص بعض آى الكتاب الموحى به على نبينا منذ ما يزيد على ثلاثة عشر قرنا تتناسب واحدث مبادئ العلوم العصرية . وكان من جراء هذه الملاحظات ان آمنت نهائيا فاصبحت بهذا على وفق الشطر الثانى من شهادتى «محمد رسول الله» .

ومن أجل هذا كان حدث فى العشرين من فيفرى (فبراير) ١٩٥٣ بجامع باريس دخولى الاسلام بصفة رسمية بمحضر وباسم «على سليمان (١)» .

(١) جريدة البصائر العدد ٢٦٤ - ٢٦ مارس ١٩٥٤ نقلا عن جريدة المسلم الجزائرية .

شهادات الاسلام

(١) اتيان دينيه (ناصر الدين دينيه) : أشعة خاصة بنور الاسلام .
: ترجمة راشد رستم (المطبعة السلفية – ١٩٢٩) مصر .
: رأى المغرب فى المشرق (طبع ١٩٢١)

(٢) هنرى دى كاسترى : الاسلام : ألفه ١٨٩٦ .
ترجمة فتحى زغلول ١٨٩٨ (القاهرة

(٣) جوزج سارتون : الشرق الأوسط فى مؤلفات الأمريكين ترجمة عمر فروخ .

(٤) جوستاف لوبون : حضارة العرب : ألفه ١٨٨٤ .
ترجمة عادل زعيتر ١٩٤٥ (الحلبى بالقاهرة) .

(٥) هر هرجورنج : الاسلام .

(٦) كمال ولف سخو ماكو (جاوه) : بحوث فى الثقافة الاسلامية .

(٧) هورتن الألمانى : استعداد الاسـلام لقبول الثقافة الروحية .

(٨) أرنولد توينبى : الاسلام والغرب .

(٩) رينان : تعليقاتى على تواريخ الأديان .

(١٠) توماس كارليل	: الأبطال وعبادة الابطال (ترجمة محمد السباعى) .
(١١) أوغست كونت	: من كتاب بين الديانات والحضارات : (طه المدور – بيروت ١٩٥٦) .
(١٢) وامبرى	
(١٣) اللورد هدلى	: المنارج ١ م ١٧ ص ٣٦
(١٤) شهادات للاسلام من غير المسلمين	: الرسالةم١٤ (١٩٤٦) ص ١٣٨٣
(١٥) غاندى	: مجلة ذى لايت (لاهور) ترجمة المنار م ٣٢ جـ ٢ .
(١٦) ديفونويب	: اعتذار إلى محمد والاسلام (المنار م ١٣ جـ ٩ ص ٧١٥ .
(١٧) كلود فارير	: يوم تراجعت المدنية ثمانية قرون
(١٨) مونته (كلين حنيفف)	: حاضر الاسلام ومستقبله . (مجلة المقتبس) م ٦ ص٣٧١ .
(١٩) اسحق طيار (القس)	: الاسلام والمسلمون . (مجلة سنت جيمس غازيت) . ١٨–١٤–١٩٨٨
(٢٠) دوزى (المستشرق الهندى)	: ملوك الطوائف ونظرات فى تاريخ الاسلام . ترجمة كامل كيلانى – ١٩٣٤ .

(٢١) واصف بطرس غالى : فروسية العرب المتوارثة
(جريدة الاخبار ٢٠ مارس ١٩٢٣) .

(٢٢) تربتون الاسلام ومعتقداته وطقوسه .
أستاذ اللغات الشرقية بجامعة لندن : صدر ١٩٥١ (تعليق الدكتور الأهوانى)
مجلة الثقافة ١٥-١٠-٥١

(٢٣) لويس ما سنيون : الاسلام والغرب (ترجمة مجلة لسان الدين) .

(٢٤) هنرى ببرين : محمد وشرعان .

(٢٥) كريستنان (سنوك) هيروجرونجيه الهولندى) : الاسلام : عن البلاغ الاسبوعى ٢٠ - ١١ - ١٩٢٩ .

(٢٦) جورج برنارد شو : الاسلام بعد مائة عام (مقال) .

(٢٧) لوثرب استودارد : حاضر العالم الاسلامى (ترجمة عجاج نويهض وتعليق شكيب أرسلان) .

(٢٨) توينبى : الحضارة فى فترة اختبار .
ترجمة عبد الجواد المطلبى (مجلة الكتاب) العراقية حزيران ١٩٦٢ .

(٢٩) رينيه ميليه : محاضرة فى مؤتمر أفريقيا الشمالية (باريس) .
١٩٠٨ ترجمة (المنار) م ١١ ص ٨١٨

(٣٠) ول دورانت : الاسلام والمسلمون «المقتطف- نوفمبر ١٩٣١) .

(٣١) سير ريتشارد وود : الكتاب الأزرق ١٨٧٨ (نشره محب الدين الخطيب ١٩١٢ بالمؤيد) .

(٣٢) وليفجانج لانجرميش : اخترت الدفاع عن الاسلام . (مجلة المختار (فبراير ١٩٥٦) .

(٣٣) هـ . ج. ولز : معالم تاريخ الانسانية .
مختصر تاريخ العالم .

(٣٤) ماسنيون : (وجهة الاسلام)
ترجمة عبد الهادى أبو ريدة ١٩٣١ مصر .

(٣٥) جب : » » »

(٣٦) ولفريد كابتول سميث : الاسلام فى التاريخ الحديث .

(٣٧) ليون روش : ثلاثون عاما فى الاسلام .
ترجمه المنار م٧ (١٩٠٤) ص ٥٢٠ .

(٣٨) مستر ر. ح. كويت : الاسلام والدولة البريطانية (ج.٥) من كتابه عن الدولة البريطانية ومستعمراتها .
(مجلة المجلات – أكتوبر ١٩٠٣) .

(٣٩) أوجين يونج : يقظة الاسلام والعرب (١٩٣٣) .

(٤٠) فيليب دى طرازى : القرآن (مجلة المجمع العلمى العربى) مجلد ١٩ ص ٤٨٩ .

: الاسلام فى سبيل الوحدة (مجلة كارانت هستورى) السياسية القومية (٩ اغسطس ١٩٣٣) .

(٤٢) شاتليه : الاسلام وعوامل الاعتقاد .
جريدة المؤيد العددين ٦١٨٨، ٦١٩٦)

(٤٣) ادوارمونته أستاذ اللغات الشرقية جامعة جنيف : الاسلام (باريس)١٩٢٣ (مكتبة بابو ترجمة القرآن (١٩٢٩) .

(٤٥) الدكتور بول دى ركلا : الدين الاسلامى فى مرآة الغرب .
(مجلة العرفان ٢٢ (١٩٣١)ص١٦٦

(٤٦) جيبون : اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها (١٧٨٨) .

(٤٧) أميل درمنجم : حياة محمد .

(٤٨) عمر فاخورى : أراء غربية فى مسائل شرقية .

(٤٩) البارون كارادى فو : آصحاب الفكر فى الاسلام (باريس) بالفرنسية .

(٥٠) سنديو : خلاصة تاريخ العرب (ترجمة على باشا مبارك) .

(٥١) الدكتورة لورا قنيشيا فاليرى (الايطالية) : محاسن الاسلام .
ترجمة طه فوزى ١٩٣٠ (يافا) .
أعيدت ترجمته باسم (دفاع عن الاسلام) منير البعلبكى بيروت ١٩٦٠

(٥٢) اللود هدلي : ايقاظ الغرب للاسلام (القاهرة) ١٩٢٢ .

(٥٣) ليوبولد فايس : الاسلام على مفترق الطرق . ترجمة عمر فروخ (١٩٤٦ بيروت)

(٥٤) الدكتور بنوا «على مليان» : جريدة البصائر ٢٦ مارس ١٩٥٤ نقلا عن جريدة المسلم الجزائرية .

(٦)
غـزوة جـديـدة للفكر الإنسانى



غزوة جـديدة للفكر الانسانى

فى يقينى أن «الاسلام» فى غزوة جديدة للفكر «الانسانى» ولا أقول الغربى . هذه هى الغزوة الثانية ، أما الغزوة الأولى فهى تلك التى جاءت أثر القرون الوسطى المظلمة لأوربا ، والتى كانت أساسا لعصر النهضة فى أوربا فى القرن الخامس عشر الميلادى .

تلك الغزوة الأولى كانت أساس الحضارة الحاضرة ، فقد تلقى المسلمون دينهم الذى هو فى الواقع دين ومجتمع وحضارة ، والذى استطاع بامتزاجه بعصارات الفكر الانسانى المتمثل فى ثقافات اليونان وفارس أن يقيم تلك الحضارة الضخمة التى عاشت ألف عام ، وما تزال قيمها فى مجال الفكر والثقافة والأدب واللغة والتشريع والتاريخ قائمة حية متفاعلة لم تمت ولم تضعف ولم تتخلف وقد مرت بالغرب فترة عصيبة تنكر فيها لفضل الثقافة الاسلامية والاسلام ذاته ، وأعلن تجاهله الكامل لها ، وسجل بأن الحضارة الغربية الحديثة هى ثمرة الحضارة الرومانية القديمة وبينهما ألف عام وأنه ليس بين أرسطو وديكارت غير معبر الزمان .

وقد عنى كثير من الباحثين بأن يكشفوا عن حقيقة الدور التاريخى للثقافة والحضارة الاسلاميتين ، وأثرهما فى حضارة الغرب القائمة الآن .

وهذا ليس مجال البحث اليوم ، فقد مرت السنون الطويلة منذ بدأ الغرب حملته الضخمة على الاسلام عن طريق ترجمة القرآن وتحريفه وتصوير

النبي محمد صلى الله عليه وسلم بصورة مزيفة ، ومهاجمة أصول الاسلام ومقاصده فى عشرات المواضع وإعطاء صورة مظلمة مضيبة له . وقد شنت هذه الحملة تحت تاثير عاملين :

(١) سيطرة الكنيسة ومحاولتها اقصاء الاسلام عن طريقها .

(٢) سيطرة النفوذ الأجنبي الذى كان يرى فى الاسلام قوة معترضة أمام أطماعه وتوسعه من هنا جاءت (الحملة على الاسلام) على عنفها مضطربة مهلهلة ، غير قائمة على منهج البحث العلمى الصحيح وإنما أبرز معالمها تلك العبارات القاسية الطائشة وتلك الاتهامات التى تبدو منها روح التعصب والحقد .

ولقد كان أصحاب هذه الحملة يهدفون إلى أمرين :

الأول : إغراق الفكر الغربى بدراسات ومراجع عن الاسلام تحول بينه وبين الدراسات الأصلية والأساسية النابعة من كتابة المسلمين أو المنصفين على الأقل .

الثانى : تشويه الاسلام فى نظر أصحابه ومعتنقيه وإثارة الشكوك والشبهات فى نفوسهم لصرفهم عنه . وتحطيم قيمه فى أنفسهم مما يعين الاستعمار على خلق طائفة من المثقفين المؤمنين بالقيم الغربية التى تعاطف النفوذ الأجنبى وتقبله .

* * *

غير أن هذه الحملة المضببة لم تحل بين الاسلام وبين النفاذ إلى القلوب والعقول ، فلم تلبث مقاصده وقيمه إلى أن بلغت إلى عشرات من طلاب الحق وأثرت فيهم فانبعثت بضوء جديد تطور من بعد إلى «تيار» قوى يحمل الحقيقة إلى ما سوى العالم الاسلامى شرقا وغربا .

ولا نعتقد أن هذا « التيار » الذى عنينا برسم صورة له فى هذه الدراسة يمكن أن يدفع الاتهام عن الغرب المتعصب ازاء الاسلام ، أو يعطى وثيقة يمكن أن يعتبرها بعض أنصار الفكر الغربى إنصافا له ذلك بان حملة التحدى والتعصب ما تزال مستمرة فى تيارها القوى . أما هذا التيار الجديد فاننا نعدّه تيارا فى الفكر الانسانى العالمى استطاع أن يشق طريقه بالرغم من كل القوى التى قاومته أو وقفت فى طريقه وتسجل النصوص كيف أن كل هؤلاء الذين واجهوا الاسلام بعقل مفتوح وقلب سليم قد لقوا من قومهم مزيدا من الاضطهاد وأن بعضهم جُرّد من أملاكه (الدكتور خالد شلدريك) أو حمل عليه حملات عنيفة كالكاتبة الايطالية : « لورا فنيشيا فاليرى » .

أو اضطر أن يمضى خمسين سنة قبل أن يعلن إسلامه خوفا من اضطراب حياته العملية كاللورد « هدلى » .

وأنا واثق من أن هذا التيار سيزداد قوة بمرور الأيام ويعمق ، ويصل إلى أبعد مدى ولا شك فى صدق ما ذهب إليه الذين انتقلوا إلى عقيدة الاسلام من أن هناك عشرات قد آمنوا بالاسلام ولم يتح لهم أن يجهروا به وأن من يستمع إلى حديث لأحد الدعاة العاملين فى هذا الميدان كالمهندس محمد توفيق أحمد صاحب مجلة «بريد الاسلام» والذى يحمل لواء التبشير الاسلامى بالبريد منذ ثلاثين عاما ليدهش كيف أن كتابا بسيطا صغير الحجم فى أربعين صحيفة يستطيع أن يكسب عقلا جديدا كلما بلغ إنسانا .. متعطشا إلى فهم الاسلام . وأن هذا العمل قد حقق لمئات من المثقفين فى أوربا وأمريكا الاقتناع العميق بجوهر هذا الدين .

وهكذا يعمق هذا التيار ويتسع نطاقه .

فاذا عدنا إلى الصورة الأولى وجدنا أن الفكر الغربى قد كان حريصا على أن يضع حجابا كثيفا على العقل الانسانى بحملته على الاسلام ، هذه الحملة التى يصورها (م . ر . كويت) فى كتابه الاسلام والدولة البريطانية[1] حين يقول :

«إن الكثيرين منا شبوا على كراهية الاسلام» وارتضعوا ذلك مع لبان أمهاتهم هذا فضلا عن أن ما لدينا من المعلومات عن الاسلام يزيد فى بعدنا عن معرفة حقيقته خصوصا لعدم إمكاننا الوقوف على أصوله من اللغة العربية.

ومن عجب أنه لم تكد تمر فترة لا تزيد عن ستين عاما حتى وجد الاسلام مجالا واضحا فى الفكر الانسانى استطاع به أن يواجه حملة الفكر الغربى عليه .

فاليوم تزخر مكتبات أوربا وأمريكا والشرق بعشرات من الكتب كتبها مثقفون من غير أهل العالم الاسلامى يصورون فيها مشاعرهم إزاء الاسلام ويكشفون فيها عن مفاهيم له ، ولا بد أن تحمل هذه الكتب بعض الأخطاء أو الاضطرابات ولكنها فى جوهرها صادقة ، فقد قرأ هؤلاء ما كتبه الغربيون ومنه — فى الأغلب — نفذوا إلى الحقيقة والدكتور خالد شلدريك[1] البريطانى المسلم يعترف بأنه لم يتلق هذا الدين أول الأمر من كتبه وإنما تلقاه من كتابات الطاعنين ، وأن البحث والتأمل دفعه إلى دراسة البوذية والبرهمية وسائر الأديان ووجد فى مكاتب بريطانيا كتبا منصفة عن كل الأديان ما عد الاسلام

---

(١) مجلة الفتح : — ١٣ صفر ١٣٥٧ م ١٢

فقد وجد كتبه مملوءة بالتحامل والمطاعن وهى تقول أنه دين لا أهمية له ، وقال الدكتور شلدريك لنفسه : إذا كان الاسلام لا أهمية له إلى هذا الحد فلماذا يبذلون كل هذه الجهود للتحامل عليه ومقاومته وتوجيه المطاعن إليه يقول خالد شلدريك «وقد وقر فى نفسى أنه لولا أن الاسلام دين يخشاه الناس ويحسبون له حسابا كبيرا لما فيه من القوة والحيوية ، لما بذلوا كل هذه الجهود لمقاومته والطعن فيه وتشويه سمعته» .

وهكذا استطاع الاسلام عن طريق الكتب المشوهة عنه أن يشق طريقه وأن يبدأ غزوة جديدة للفكر الانسانى ، لا شك سيكون لها مدى كبير وأثر لا حد له ، هذا الأثر الذى يكشف عنه كل الذين عرفوا الاسلام وآمنوا به .

إن الذين كوّنوا هذا التيار الجديد الذى يعد غزوة جديدة من الاسلام للفكر الانسانى يمثلون ثلاث جبهات :

* معجبون هزهم الاسلام بحقائقه الدامغة فقالوا فيه كلمة الحق وهم أمثال توماس كارليل وجوستاف لوبون وجورج سارتون وهورتن الألمانى وهرجودنج ودبورانب ولفرن كابتول سميث وآميل درمنجم والبارون كارادى فو والدكتور بول دى ركلا وسيديو .

وهؤلاء بين مؤرخين وصحفيين وكتاب قد وصلت إليهم الحقيقة فاعلنوها معترفين بفضل الاسلام وأثره فى الحضارة الحديثة وقيمه الحية النابضة ومدى ما يمكن أن تقدمه للانسانية .

* قادة وكتاب وسياسيون قالوا الحقيقة لقومهم لتضع حكوماتهم ومؤسساتهم الخطط التى تمكنها من رسم طريق صحيح مع العالم الاسلامى ومن هؤلاء : هنرى دى كاسترى والقس اسحق طيلر ولويس ما سينون وجب ورينيه ميليه وكريستان سنوك هبروجرونجيه وسير ريتشارد وود وتاتليه وأوجين يونج .

* مومنون بهرهم الاسلام حقيقة فآمنوا به أمثال اللورد هدلى واتيان دينيه وليون روش والدكنورة لورا فانيشيا فاليرى وليوبولد فايس وعبد الله كوليام ونشكيتابا رهبابا وهارى هينكل وخالد شلدريك .

وهناك مجموعة أخرى من كبار المفكرين استطاعوا أن يصححوا آراءهم فى الاسلام بعد مراجعة لأفكاره أمثال رينان واوغست كونت ومن عجب أن ترى ديفو توبب يؤلف كتابا يطلق عليه اسم «اعتذار إلى محمد والاسلام» أو تسمع قصة ليون روش الذى عمل كاتما لأسرار الأمير عبد القادر الجزائرى وجاسوسا عليه لفرنسا واستطاع الأمير بعد ثلاثين عاما أن يجذبه إليه .

وأمامى أكثر من ثلاثين مرجعا وأكثر من مائتى فكرة عن كتاب غربيين وشرقيين اعترفوا للاسلام بالفضل ومن بين هؤلاء الكتاب أبرز كتاب الانسانية أمثال كارليل وتويمبى وبرنارد شو وولز وجب ودرمنجم وسيديو فى وثائق ثابتة ، يكشفون فيها عن رأيهم الذى كتبوه دون أى ضغط أو إكراه . فماذا يعنى هذا .

ما الذى دفع هؤلاء الى أن يقولوا كلمة الحق فى الاسلام ؟

إذا كنا نتهم بعض الكتاب الذين حملوا على الاسلام أنهم كانوا متصلين بالكنيسة أو بوزارات المستعمرات فى دولهم ، فماذا نقول فى هؤلاء وليس للاسلام نفوذ فى أوربا يستطيع أن يغرى كتابا لهم مثل هذا النفوذ الفكرى بأن يقولوا كلمة الحق ، إذن فليس سبيل إلا أن الاسلام بقوته الذاتية الدافعة ومقاصده القوية ، وتعاليمه الصادقة ، وقيمه الأساسية هو الذىاستطاع أن ينفذ إلى هذه القلوب والعقول .

وإذا كان الاستعمار والتعصب قد شقا فى قلب الفكر الغربى تيارا قويا ضد الاسلام فان الاسلام استطاع أن يقوم بغزوة جديدة فى الفكر الانسانى كله ويحفر تيارا لاشك فى أصالته وقوته ، برز فيه كتاب من الأعلام فى

مجال الفكر الغربى وكتاب تدل كتاباتهم على الصدق والايمان بالحقيقة ، وقدواجه هؤلاء جميعا ما وجه للاسلام من اتهامات فى حملة التحدى الضخمة الضارية واستطاعوا أن يكشفوا عن حقائق هامة .

أولا : أن الكتاب الغربيين لم يعتمدوا المذهب العلمى أساسا لآرائهم أو أبحاثهم .

ثانيا : ان الاسلام (بوصفه دينا وثقافة ومجتمعا وحضارة) يكشف فى تعاليمه عن سلامة وبساطة وشمول يمكن أن يعطى الانسانية الحائرة الآن حاجتها .

ثالثا : ان الاسلام لا يقف عقبة فى سبيل الفكر فقد يكون المرء صحيح الاسلام وفى الوقت نفسه حر الفكر (١) .

رابعا : ان الاسلام قد صلح منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس كذلك لكل أنواع العقليات وجميع درجات المرتبات على حد تعبير ناصر الدين دينيه الذى يقول :

«وبينما تجد الاسلام يهيج فى نفس الرجل العملى فى أسواق لندن حيث مبدأ القوم «الوقت من ذهب» اذ هو يأخذ بلب ذلك الفيلسوف الروحانى وكما يتقبله عن رضا ذلك الشرقى ذو التأملات ورب الخيال اذ يهواه ذلك الغربى الذى افناه الفن وتملكه الشعر»(١) .

خامسا : قدرة المسلمين على تمثل آراء الغرب والفكر الانسانى فى تطوره

---

(١) اشعة خاصة بنور الاسلام كتاب ناصر الدين دينيه ترجمة أسعد رستم

يقول كازانوفا : يعتقد الكثيرون منا أن المسلمين لا يستطيعون تمثل آرائنا وهضم أفكارنا ، يعتقدون ذلك وينسون أن نبي الاسلام هو القائل بأن فضل العلم خير من فضل العبادة .

سادسا : صدق القرآن وتأكيد رسالته من الله وأنه ليس من صنع محمد يقول سانت هيلر فى كتابه تاريخ النبي : «انه كان يشك فى صدق النبي فى رسالته حتى قرأ فى جميع السير أنه لما نزلت آية الحفظ. ووعد الله نبيه بأنه سيتولى حراسته وقال «والله يعصمك من الناس» بادر محمد بصرف حرسه ، والمرءُ لا يكذب على نفسه ولا يخدعها فلو كان لهذا الوحى مصدر غير الله لأبقى محمد حرسه» .

سابعا : الاعتراف بفضل «الاسلام» على الحضارة الحديثة .

حتى أن نيتشة (١) يقول : لقد حرمتنا المسيحية ميراث العبقرية القديم ثم حرمتنا بعد ذلك من الاسلام فقد ديست بالأقدام تلك المدنية العظيمة مدنية الأندلس المغربية ولماذا لأنها نشأت من أصول رفيعة وغرائز شريفة ثم من غرائز رجال تلك المدنية التى لم تنكر الحياة بل أجابتها بالايجاب وفتحت لها صدرها لقد قاتل الصليبيون تلك المدنية وكان أولى بهم أنيسجدوا لها على التراب ويعبدوها ، وما مدنيتنا فى هذا القرن التاسع عشر إلا فقيرة وانية بجانب مدنية الاسلام فى ذلك الوقت .

ثامنا : مسايرة الاسلام للمدنية :

وهذه عبارة ولز «كل دين لا يسير مع المدنية فى كل طور من أطوارها

---

(١) مجلة المستقبل ١٩١٤/٥/٢٤ ترجمة لسلامة موسى عن نيتشه

فاضرب به عرض الحائط. ولا تبال به ؛ وأن الديانة الحقة التى وجدتها تسير مع المدنية التى سارت هى المدنية الاسلامية ، واذا أراد الانسان أن يعرف شيئا عن هذا فليقرأ القرآن وما فيه من نظرات علمية وقوانين وأنظمة لربط المجتمع وإذا طلب منى أحد ، أن أحدد له الاسلام فاننى أحدده بهذه العبارة «الاسلام هو المدنية »(١) .

تاسعا : انتشار الاسلام بالاقتناع :

يقول اللورد هدلى(٢) لا أظن أبدا أن المسلمين اجتهدوا فى حين من الأحيان أن يحشروا أفكارهم ومعتقداتهم الدينية فى حلوق الناس وصدورهم بالقوة أو الفظاعة أو التعذيب ولم يشهر محمد السلاح إلا حين الحاجة القصوى لحماية البشرية ، وأن أعداء الاسلام لأعجز من أن يأتوا بدليل أو مثل من الأمثلة التى أثرت فيها الحرب على هداية قبيلة واحدة أو شخص واحد .

عاشرا : «بساطة الاسلام وحقائقه» .

يقول اللورد هدلى : إن أعظم ما تركه الاسلام فى نفسى ما تجلى له من البساطة والحقيقة بحيث وجدته يمتاز على غيره ببساطته وخلوه من كل مغالطة أو إبهام . الدين الذى ليس فيه أى أثر للاحتمالات والخيالات والذى يدعو الانسان إلى الثقة الكاملة بعدل الله ورحمته » .

---

(١) موسوعة « الحديقة » لمحب الدين الخطيب جـ ٧ ص ٢٦٢ .
(٢) المنار م ٢٩ جـ ٥ عن مجلة (اسلاميك رفيو)

حادى عشر : صدق محمد

يقول كارليل : أَفَيَقْوَى مدع زائف على ايجاد دين ، ان الزائف لايستطيع أن ينشئ شيئا ولو كان هذا الشئ بيتا من الطوب » .

ويقول دوزى : «لو صح ما قاله القساوسة من أن محمدًا نبي منافق كذاب فكيف نعلل انتصاره . ما بال فتوحات أتباعه تترى وتتاوا إحداها الأُخرى ، وما بال انتصاراتهم على الشعوب لا تقف عند حد . وكيف لا يدل ذلك على معجزة هذا الرسول » .

ومن رأى برنارد شو أن يدعى محمد منقذ الانسانية وعنده أنه لو تولى زعامة العالم «الحديث» لنجح فى حل مشكلاته .

ويقول الدكتور ماردوس المستشرق الفرنسى أن أكثر الكتاب ارتيابا وشكا قد خضعوا لسلطان تـأْثير محمد . ويقول ولز :إن محمدا كان من أَنجح الأَنبياء وأكثرهم توفيقا ويقول غوته : إننا أَهل أُوربا بجميع مناهجنا لم نصل إلى أبعد مما وصل إليه محمد وسوف لن يتقدم عليه أَحد . ويقول وليم موير : إن محمدا قد امتاز بوضوح كلامه ويسر دينه ، وقد أَتم من الأَعمال ما يدهش العقول ولم يعهد التاريخ مصلحا أَيقظ النفوس وأَحيا الأَخلاق فى زمن قصير كما فعل محمد .

ثانى عشر : الاسلام ليس له مرتدون وهو مسيحية وزيادة .

يقول الكونت هنرى دى كاسترى : إن الاسلام هو الدين الوحيد الذى ليس له مرتدون ، ويقول (ايتان دينيه) إن للاسلام على النفوس طابعا

لا يمحى والذين يعتنقونه من الأوربيين والأمريكيين دائما من الخاصة وإسلامهم لا شك فيه لأنهم أبعد ما يكونون عن الاغراض المادية .

ثالث عشر : الاسلام ليس عدوا للعلم :

وقد اعترف بذلك (البرت هويك) حين قال : حينما تعمقت فى قراءة القرآن اندهشت لعصرية القرآن فى علاقته بالعلم ، فنى الاسلام من المستحيل وجود مثل حادث (جاليلو) والتعاليم الاسلامية لن تعارض البحوث العلمية الحديثة ولم تقف فى وجه مقتضيات العالم الحديث .

وقال تريتون : ان الاسلام يكبر من شأن العلم إكباراً لاشائبة فيه فهو فريضة على كل مسلم ومسلمة .

رابع عشر : توقف الاسلام أظلم أوربا

اعترف بذلك كلود فارير أستاذ اللغات الشرقية ، وهنرى دى شامبيون وجيمس برستد .

قال كلود فارير : ان فاجعة عام ٧٣٢ (معركة بواتيه) كانت أشأم الفواجع التى انقضت على الانسانية فى القرون الوسطى ، هى معركة بواتيه ، برابرة المحاربين من الأفرنج بقيادة شارل مارتل . ماذا عساها أن تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الاسلام العمرانى المتسامح .

ويقول هنرى دى شاميون : إن انتصار كارل مارتل على تقدم الاسلام فى فرنسا أخر سير المدنية ثمانية قرون وأنه هو الذى أوقع اوربا فى ظلمات

القرون الوسطى ومكابدة المذابح الأهليـة الناشئـة عن التعصب الدينى والمذهبي .

وقال جيمس برستد : أن العصر الاسلامى فى أسبانيا كان أكبر عامل من عوامل المدنية فى أوربا وأن انخذال المسلمين فى أسبانيا كان بمثابة انهزام المدنية أمام الهمجية .

واليوم تبدو حاجة الانسانية إلى الاسلام ، وتبدو عالمية الاسلام نفسه ، ذلك أن الاسلام اليوم حين يفتح جبهة جديدة فى الفكر الانسانى ويغزوه من جديد على هذا النحو ، إنما يثبت صلاحيته الحقيقية لحل مشاكل البشرية وليس أقدر منه على تحقيق هذا الأمل للأمم الحائرة بعد تجاربها الطويلة خارج نطاقه فقد انصرفت الحضارة الحديثة عن المسيحية عندما عاقتها عن التقدم العلمى ، وبذلك انصرفت عن الدين كله ، وظنت حين واجهت الاسلام أنه كالمسيحية سيقف فى وجهها ونظرت إليه من نفس الزاوية .وحكمت عليه قبل أن تكشف جوهره ، وحملت دعوة التغريب رأى الفكر الغربى فى الدين الذى كونته عن طريق مفاهيمها فى المسيحية ، محاولة أن تطبقه على الاسلام غير أن الأمر يختلف كثيرا وأمامنا هذه الوثائق التى قدمها نفس الأعلام المثقفين الذين قارنوا بين تجربتهم مع الاسلام والأديان الأخرى تعطى الحقيقة ولا شك أن العالم يمر اليوم بأزمة أساسية تضطرب كيانه كله ، فى تعلياته الحائرة بين المذاهب والدعوات والأفكار مما يصوره هارولد لاسكى(١) حين يقول من قرن مضى « كان فى مقدور الدين أن يتيح للكثيرين الأمل فى تعويض ما نالهم من الحياة وذلك فى الحياة الأخرى ، أما الآن فقد اطفأ العلم أنوار السماء ولا طريق للخلاص إلا فى ظل الحاضر العاجل . ومنذ قرن مضى رأى الناس بارقة أمل فى الصناعة الجديدة .

(١) ترجمة على ادهم — مجلة المجلة (ديسمبر ١٩٥٨)

والآن وبالرغم من مزاياها الهائلة يتضح أن الطاقة المادية التى تستطيع أن تشكل الطبيعة لخدمة أغراضنا دون أن يساندها مبدأ ما ، لم يصبح لها أى معنى إلا إذا كان لهذه الطاقة هدف معروف ثم التمست بعض المذاهب الكاملة (totalisme) شيئا يكون دينا أو كالدين ، ولم تستطع القومية أو الديمقراطية أو الناشية أو الماركسية أن تسد فى قرن أو قرنين مسد الدين الذى أشبع العقول والقلوب من قرون وقرون .

وعالجت الحضارة الغربية بعض أزماتها فى ميدان علم النفس تحاول أن تسد الثغرة الروحية فى بناء الحضارة المادية بعلم يسير على مناهج العلوم التجريبية البحته ونجح علم النفس حين تواضع وأخفق حين جمح ينشد فلسفة نفسية كاملة أو دينا جديدا ، وأشار فى نجاحه وإخفاقه إلى الضمير الغائب ، إلى الدين .

ويعترف (سيمون وايل) فى مقاله البحث عن الجذور بأن العلم الحديث والنظم الاقتصادية والسياسية قد فشلت فى الاعتراف بحاجتها إلى هدى الله مما أوجد هذه المساوئ وهذا التفكك والتشويش والقلق الذى يهيمن على أفكار أهل الجيل وسلوكهم .

وتقول الكاتبة الفرنسية مدام سنت بوانت «أتهم المدنية الغربية بأنها قصرت عن القيام بالمهمة التى تزعم أنها القيت على عاتقها فى الأجيال الأخيرة أعنى المهمة التى ترمى الى نشر تعاليم الانسانية وتعميمها على وجه الأرض وتؤدى إلى الاتحاد لقد أراد الغرب ان يوحد العالم ولكن تحت سلطانه ولمصلحته والعالم لا يساس إلا بالعدل وبالحب والأخاء وبرد الحقوق إلى

أهلها ، ولكن الغرب لجأ إلى القوة الغاشمة وعبث بالشرائع الدينية وخالف تعاليم المسيح عيسى الذى أمر بمحبة الناس أجمعين » .

* * *

ومن هنا يأتى تقدير المنصفين الغربيين للاسلام كوسيلة لحل الأزمة الانسانية العالمية يبدو هذا فى كتابات الكثيرين منهم :

فبرنارد شو يقول « انا على يقين من ان دين محمد سيكون دين أوربا فى غد ، كما انه قد أخذ الأوربيون بقبلونه من اليوم وفى القرن التالى سيكون أهل أوربا أكثر معرفة بفائدة اعتقاد (محمد فى حل مشكلاتهم) .

وليون روش فى كتابه (٣٠ عاما فى الاسلام) يقول :

ولقد وجدت فى الاسلام حل المسألتين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم طرا (الأولى) فى قول القرآن (إنما المؤمنون أخوة) فهذا أجمل مبادئ الاشتراكية (الثانية) فرض الزكاة على كل ذى مال وتخويل الفقراء حق اخذها غصبا إذا امتنع الأغنياء عن دفعها طوعا .

ويقول تويمى : إن الاسلام قد قضى على النزعة العنصرية والصراع الطبقى بتقرير مبدأ الاخاء الاسلامى والمساواة المطلقة بين المسلمين ، وعلى الغرب أن يأخذ بهذا المبدأ الاسلامى لتنجوا المدنية الحالية مما يدب فيها اليوم من عناصر العداء .

ويقول اللورد هدلى : لو ندبت لجنة من الانجليز الأكفاء لفحص الدين الصالح لأن يتدين به العالم كله لأجمعوا على اختيار الاسلام .

ويقول رينان : وما يدرينا أن يعود العقل الاسلامى الولود والكثير المواهب إلى إبداع مدنية أرق من زميلتها المندثرة ، إن فترات الإزدهار والانحطاط مرت على رأس جميع الأمم بما فيها أوربا المتعجرفة .

ويقول هورتن الألمانى : لا نجد فى الاسلام سدا يمنع من نفوذ الثقافة الغربية إليه بل نرى أن له استعدادا لقبول الثقافة لا حد له .

ويقول أيضا : إن العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين .

وقد صور هذا المعنى الفيلسوف سبنسر فى حديثه مع الشيخ محمد عبده حيث قال : محى الحق من عقول أهل أوربا ، واستحوذت عليهم الأفكار المادية فذهبت الفضيلة وهذه الأفكار المادية ظهرت فى اللاتين أولا ، فأفسدت الأخلاق وأضعفت الفضيلة ثم سرت عدواها منهم إلى الانجليز ، وقال إننى أتهم المدنية الغربية بأنها قصرت عن القيام بالمهمة التى تزعم أنها ألقيت على عاتقها فى الأجيال الأخيرة(١) .

وهكذا يكشف الفكر الاسلامى عن حقيقتين كبيرتين :

أولا : عالمية الاسلام وأنه ليس دينا قط بل دينا وثقافة وحضارة ومجتمعا

ثانيا : حاجة الحضارة القائمة إليه وحاجة الانسانية لحل معضلاتها .

* * *

بقى أن ننظر إلى الاسلام نفسه وموقفنا فى العالم الاسلامى منه .

(١) موسوعة الحديقة لمحب الدين الخطيب م ٣ ص ١٩٥٢

فنحن أشد مانكون حاجة إلى أن نؤمن به ونثق بحاجتنا نحن أولا إليه باعتباره المصدر الحقيقى لثقافتنا والأساس الأكبر لمقوماتنا الفكرية والروحية ، وعنده نجد القوة لمواجهة كل الأعاصير وحل كل مشاكلها ، ومقاومة كل التحديات .

وجوستاف لوبون[1] فى حديث له مع مصرى يدعى «توفيق يزدى» زاره فى منزله بشارع أفينو بباريس يكشف هذه الحقيقة ويجاهر بها حيث قال :

إن سبب انحطاط الشرق هو تركه روح الدين ، وتشبثه بالعقائد الباطلة ، فإن قوة الدين قوة أدبية لا يستهان بها ومن الواجب عليكم أن تأخذوا من دينكم ما يوافق روح العصر وأن تحافظوا على تقاليدكم الحسنة وعاداتكم المرضية وعلى الطلاب الذين يأتون أوربا أن يجنوا من العلوم والفنون والأفكار ما ينفع وطنهم ويوافق أخلاقهم إن الشعب الذى يريد الرقى يجب ألا يقطع الصلة التى تربطه بماضيه .

ونفس هذا المعنى يردده المستشرق (وامبرى) حيث يقول إن روح نظام المسلمين هو الدين ، والذى أحياهم هو الدين ، والذى يكفل سلامتهم فى المستقبل هو الدين ليس إلا . .

والذى لا شك فيه أن الاسلام استطاع أن يقاوم كل ما وجه إليه من تحديات وأنه قد خطا خطوة واسعة منذ استطاع أن ينفذ بروحه القوية إلى الفكر الانسانى فيكسب أنصارا خارج العالم الاسلامى لا يعرفون العربية ولا يقرءون

(١) مجلة رمسيس السنة الثالثة ص ٦١٩

القرآن بها وهذه آية عظمته ، وقد اعترف له الجميع بأنه لن يسقط. أمام الحملات العنيفة التي يشنها الاستعمار والنفوذ الغربي عليه وقد سجل ذلك الدكتور كرستيان ستوك هر جرنج الهولندى عام ١٩١٣ عند ما كان الاسلام يمر بأقسى فترات التحدى والتعصب والمقاومة حين قال «لا أعتقد أبدا أن الاسلام يسقط. أمام النصرانية أو الغرب وقد تغلغلت الأفكار الأوربية فى بلاد المسلمين ، ولكن لم يجد منها الشعور الأوربى مركزا ، لهذا أتجرأ على القول بأن المسلمين سيستمرون على دينهم وكلما عشت بين المسلمين ازددت اعتقادا بأن الاسلام سيجرى فى نشوئه على الطريقة التى سلكها ولا يمكن أن يقع انحطاط. تدريجى فى الاسلام لانه لا توجد بواعث خارجية تمنعه فالاسلام قوى ولم يضعف[1] .

وبعد : فى يقينى أن هذه الصفحات قد كشفت حقائق واضحة عن الاسلام ، لم يكتبها المسلمون ، وإنما كتبها مثقفون من الغرب والشرق من خارج نطاق العالم الاسلامى أتيح لهم أن يتصلوا بالاسلام قراءة أو زيارة ومن خلال ركام ضخم من حملات التعصب على الاسلام اكتشفوا الحقيقة ، واستطاع الاسلام بقوته الذاتية أن يواجه نفوسا متطلعة إلى الحقيقة ، فعرفته وآمنت بعالميته ، وحاجة الانسانية إليه .

وهكذا استطاع الاسلام أن يغزو الفكر الانسانى مرة أخرى وأن يحقق له تيارا قويا هو مقدمة أكيدة لتقدم خطير فى مجال الايمان به إزاء أزمة البشرية

---

(١) ٧ ١ ج ٣ المنار ص ٢١٢

الضخمة التى تواجهها الآن ، وما أصاب الانسان فى العالم كله من قلق واضطراب وتقلب بين المذاهب والدعوات والنظم .

ولا سبيل له إلى حل مشاكله والوصول إلى الطمأنينة الفكرية والنفسية الحقة إلا عن طريق واحد هو :

« الاســـلام »

أنور الجندى

فهـــرس عــــام

صفحة

صفحة



مؤسسة
دار التحرير للطبع والنشر
مطابع شركة الاعلانات الشرقية